من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

من مقالات

الأستاذ محمود محمد شاكر

من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

ذات النطاقين

(قال عمر بن أربى ربيعة بعَقِب حديثه) :

... فوالله لقد جَهَدَنا البلاء - يا أهل مكة - ولقد صبرنا على حصار الحجّاج سبعة أشهر أو تزيد عن غير حصن ولا منعة ، وإنّ أحدَنا ليُرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى ، ولولا بركة تلك العين (يعنى زمزم) لقضينا ، وصدق رسول الله ﷺ « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعم » لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام ، وما ندرى ما يُفْعَلُ بنا مُنذُ اليوم . فلقد خَذَل « ابنَ الزُّبَير » أصحابُه خذلانًا شديدًا ، وما من ساعةٍ تمضى حتى يخرج من أهل مكة من يخرج إلى الحجاج فى طلب الأمان . ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه ، يحمون « البيت » أن يُلحَد فيه ، ثم ينكشفون عنه انكشافة كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَّوْع ...

وخرجتُ ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليّة نحل مما يدوِّى فى أرجائها مِنْ صوت داعٍ ومكبِّر وقارئ ، وصَمَدْت [1] أريد المسجد فأسمع أذان « سعد » مؤذِّنِ ابن الزبير فأصلى ركعتى الفجر ، فيتقدم ابن الزبير فيصلى بنا أتمَّ صلاة ، ثم يستأذن الناس ممن بقى من أصحابه أن يُوَدّع أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فأنطلق وراءه وما أكادُ أراهُ مما احتشدَ الناس فى المسجد ، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضّضُون ويُحرّضون ، وزاحمت الناس المناكب أرجو ألا يَفوتنى مَشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تَعْلمُ أنه مقتول لا مَحَالة ، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرف من دارها يريد المسجد ، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء

---

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد : ٢٩٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٥٣٩ - ٥٤١

(١) صَمَدَ المكانَ وإليه : قَصَدَه

طُوالة كأنْ سرْحةٌ (١) فى ثيابها ، قد أمسكت بعُضادتى الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصرُه ، وقد برقَت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض (٢) المتهلل ، ثم تنادى بأرفع صوت وأحنِّه وألينه ، قد اجتمعت فيه قوة إيمانها وحنينُ قلبِها : « ياعبد الله ! يا بُنى ، إنى أُمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك فلا تَهِن ولا تجزع . يابنى ابذُل مُهجة نفسك ، ولا تَبعد إلا من النار ... ياعبد الله ! لا تبعد إلا من النار ، أستودعك الله يابُنى ! » ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِرَاعٌ قد طُوِى .

رحمة الله عليكم يا آل أبى بكر ، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وأُلينهم قلوبًا . وأحسن الله عزاءك ياذاتَ النطاقين ، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أُنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها .

وانصرفتُ عنها بهمِّى أسعَى ، فوالله ما رأيت كاليوم أكْسَبَ لعجب وأجَدّ لحُزنٍ من أمٍّ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزْهَرُ ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبَالةٌ توشكُ أن تنطفئ ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها ، فما أرَى وُجُومَها وقُطُوبَها وانكِسَارَها ورَهَقَهَا وصُفرَتها إلَّا ذِلّة النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعِلَّتها ، وأن المؤمنَ حين يحضُره الهمُّ أشْعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانُه – حين يؤمن – أبلجَ يتوقَّد ، ليكون البُرْهانَ على أنَّ الإيمانَ صيْقَلُ الحياةِ الدُّنيا ، يَنْفى خَبَثَها ويجلو صَدَأَها ، فإمَّا رَكِبها من ذلك شئٌ ، عادَ عليها يُحَادثها ويصقُلها حتى يتركها بيضاءَ نقيَّة ...

وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيتُ ابن ذاتِ النِّطاقين قائما بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِهِ واجتماعه ، ووثاقَة بنائِه ، وحضَرْته وهو يقول : « أيها الناس ، عجِّلوا الوِقاع ، ولا يرعِكُمْ وَقْع السيوف ، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، فلينظرْ رجلٌ كيف يضرب ، لاتخطئوا مضاربكم فتكسِرُوها ، فإن الرجُلَ إذا ذهب

---

(١) السَّرْحَة : الشجرة الطويلة العظيمة .

(٢) العارِض : السحاب يعترض فى الأفق .

سلاحُه كان أعزَلَ أعضبَ [١] يؤخَذُ أخذًا كما تُؤخذ المرأة . لِيَشْغَلْ كلّ امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلهينكم السؤالُ عنى : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا منْ كان سائلًا عنى فإنى فى الرَّعيل الأول » ... ثم يدفَعُ أسدٌ فى أَجَمَةٍ ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة [٢] فى منازلهم من الرُّعب ، فلقد رأيتُه يقفُ ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننتُ أنه لا يُقْتَلُ ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمى بحجرٍ فأصاب وجْههُ فبلغ منه حتى دَمِىَ ، وسال دَمُه على لحيته ، وأُرعشَتْ يدُه ... وغَشِيهُ أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتغاوَوْا [٣] عليه ، وهو يقاتلهم جَاثِمًا أشدَّ قتال حتى قُتِل .

وارحمتا لك يا بنتَ أبى بكر !! أىُّ كبِدٍ هى أشدُّ لوعةً من كبدِكِ ! لقد والله رُحمتِ رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر ، لئن لم تكونى تجزعين لموته ، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلُوا به وحزُّوا رأسهُ ، ورفعوه على خشبةٍ مُنكَّسًا مَصلوبًا ...

وما كدْتُ حتى أقبلتْ أسماءُ بين يديها كفنٌ قد أَعدَّته ودَخَّنتْهُ [٤] ، والناسُ ينفرجون عن طريقِها فى أعينهم البكاء ، وفى قلوبهم الحُزْنُ والرُّعب ، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قُبورهم لساعتهم ، وسكنت الأوصالُ ، وجالت الأحداقُ فى مَحاجرها وكأنها همَّت تخرُج ، وتمشى أسماءُ صامدة [٥] إلى الخشبة صمدًا وكأنها ترى ابنها المصلوب ، وكأنها تستروِح رائحة دَمِهِ ، حتى إذا بَلَغَتْهُ – وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارهُمْ ورجفت بهم قُلوبُهم – وقفتْ ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظِلاله فقالت : « يابُنَىّ طبتَ حيًّا وميّتًا ، ولا والله ما أجزعُ لِفراقك ياعبد الله ، فمن يَكُ قُتِلَ على باطل فقد قتلتَ على حق ، والله لأُثْنِيَنّ عليك بعلمى : لقد قتلوك يابُنى مُسلمًا محرمًا ظمآن الهواجر مصلّيًا فى ليلك ونهارك » .

---

(١) الأعضب : أصله فى الحيوان ، وهو المكسور القرْن .

(٢) حاص (كسار) : رَجَع ، وفى حديث أَنَس يوم أُحد « وحاص المسلمون حَيْصَةً » ، أى جالوا جولةً يطلبون الفرار .

(٣) تَغَاوَوْا عليه : تجمّعوا عليه ، وهى بالعين المهملة أيضا .

(٤) دَخَّن الثوبَ : جعل فيه الدُّخْنَة ، وهو بُخُور تُدَخَّن به الثياب والبيت .

(٥) صَمَد المكانَ وإليه : قَصَدَه

ثم أقبلتْ وجهها السماءَ ومدّت بيديها تدعو : « اللهمَّ إنى قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ له ، فأثبنى فى عبد الله ثوابَ الشاكرين الصابرين . اللهمّ ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، وبرَّهُ بأبيه وبى » .

ووجم الناس وجمةً واحدةً ، وخشعوا خشعةً لكأن السماءَ والأرض صارتا رتقًا فما يتنفَّسُ من تنفَّس إلا من تحتِ الهمِّ والجهد والبلاء . وكأنّ مكة بيتٌ قد غُلِّقتْ عليه أبوابهُ لا ينفُذُ إليه أحد ولا يبرحه أحد . وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم ، وبدت أسماءُ بينهم وكأن وجهها سراج قد نُصَّ على سارية ، لا يزال يزهر ويتلألأ ، ثم تتلفت كأنما تتطلع فى وجوه هذه الأبدان الخوالد [١] ، وأضاء ثغرها عن ابتسامة . والله لقد بلغتْ من العمر وما سقطت لها سنٌّ ، ومازال ثغرها ترفُّ غروبه [٢] ثم قالت : « يا بَنِيَّ ، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم ، فخذلتم أخاكم ، وفررتم عن مثل مصرعه . يابنِيَّ يغفر الله لكم ، وجزاكم الله عن صاحبكم خيرًا » .

وأطرقت أسماءُ إطراقةً ثم رفعت رأسها تُومِئُ إلى الخشبة ، فوالله لقد رعدت فرائصى حتى تَزَايلتْ أوْصالى ، وصَرَّ الناسُ كأنما تقصَّفت أصلابُهم [٣] ، وإذا هى تقول : « أَلَا مَنْ مُبْلِغ الحجّاج أن المُثْلَة سبّة للحىّ وما تضرّ الميّت . ألا مَنْ يُبْلِغ الحجّاجَ عنّى أن الشَّاةَ إذا ذُبحَتْ لم تألم السَّلْخ » .

وحامتْ أسماءُ وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً ، لا يُرَى إلّا بريق وجهها يومِضُ كأنه سيف صَقِيل ، ثم طفقت تردّد « يابَنِيّ ، أمَا آن لهذا الراكبِ أن ينزل ؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ! يابَنِيّ ليستأذنْ أحدُكم حَجّاجَكمُ هذا أن يَدفَع إلىّ هذه العظام . أَدُّوا عنى ، يرحم الله من أَدَّى عنِّى » .

فيجىء الرسول من قِبل الحجاج يأبَى عليها أن تُدْفَعَ إليها عظَامُ ابنها

---

(١) الخوالد هنا : بمعنى الساكنة كالجبال والحجارة والصخور .

(٢) الغروب : جمع غَرْب ، وهو الماء على الأسنان يكسبها بَريقا .

(٣) صر : صدر عنهم صوتا كالصرير ، وجاءت هذه العبارة فى شعر العطوى :

وليس صريرُ النَّعْش ما تسمعونه ولكنه أصلابُ قَوْم تَقَصَّفُ

المصلوب ، ويَجيءُ على أثره موكلون قد وكلهم بجثّته يقومون عليها يحرسونها ، كأنما خَشِى أن يَحيا ميت قد حُزَّ رأسه أن تمسّهُ يَدُ أُمّه . فوالله ، فوالله لقد سمعتْ أسماءُ وخُبّرتْ فما زادت على أن وَلّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دمْع ، وما تُجاوز قومًا إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوّض ، حتى ولجتْ بابَها وغلَّقته عليها .

وانطلقتُ أنفضُ الناسَ بعينيّ ، فرأيتُ أخى الحارث (ابن عبد الله بن أبى ربيعة) وابن أبى عتيق (هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) ما فى وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرقِ . فقلت : ماهذا أوان جزع ، انطلقوا بنا - يرحمكم الله - إلى دارها نواسيها ونترفقُ لها ، فوالله لقد تخوَّف أن يذهبَ بها الحزن عليه ، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لَقِيتْه . ويطرق الباب ابن أبى عتيق ، فيجيبُ الصوت من داخل : قد أسمعتَ فمهْ . فيقول : أنا ابن أبى عتيق يا أمَّاه . ويؤذن لنا فندخل دارها تَجِفُ قلوبنا من الروع والرّهبة ، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ وزوج حواريِّه عليه السلام ، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة .

استضحكت أَسماءُ حتى بدت نواجذُها وقالت : « مرحبًا بكم يا بَنّى ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أُمكم فى عبد الله . يرحم الله أخاكم لقد كان صوَّامًا قوَّامًا ما علمتُ . وكان ابن أبيه الزُّبير أوّلِ رجل سلّ سيفه فى الله ، وكان أشبه الناس بأبى بكر .

يا بَنىّ ، والله لقد حملتُه على عُسْرَةٍ ، والمسلمون يومئذ قليلٌ مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطَّفَهُم الناس ، ولقَدْ سعيت به جنينًا بين بيت أبى بكر وغار ثور بأسفل مكة فى هجرة رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام ، ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله ﷺ ، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لهما عِصامًا (١) ، فلما ارتحلا

(١) عِصام السِّقاء والقربة هو رباطها وسَيْرها التى تُحْمَل به .

ذهبتُ أُعلِّق السُّفرة فإذا ليس لها عِصامٌ ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به ، ووالله ما أجِدُ إلّا نطاقى وأنا حُبلى مُتِمٌّ . فيقول أبو بكر يا أسماءُ شقِّيه اثنين ؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة ؛ فلذلك ما سمّانى رسول الله ﷺ « ذات النِّطاقين » يعنى فى الجنة . وأعود بعبد الله يرتكض فى أحشائى ، قد احتسبتُ نِطاقى فى سبيل الله ، فوالله ما أجدنى احتسبتُ بنىّ عبدَ الله اليوم إلا كما احتسبت نطاقى ذاكم . وأعود إلى دار أبى بكر ويأتى نفرٌ من قريش فيهم أبو جهلٍ فوقفوا ببابها ، فأخرج إليهم فيقولون : أين أبوك يابنت أبى بكرٍ ؟ فأقول : لا أدرى والله أين أبى ، فيرفع أبو جهل يده – وكان فاحشًا خبيثًا – فيلطم خدِّى لطمة يطرح منها قُرطى فتغُول بى الأرض الفضاء ، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهون عندى مما لقيتُ من لطمة أبى جهل وأنا بعبد الله حامِلٌ مُتِمٌّ . يابَنِيّ إنى آخرُ المهاجرين والمهاجراتِ ، لم يبق على ظَهرِها بعد عبد الله منهم غيرى ، فلا والله ما حَسَنٌ أن يَجزَعَ من هاجَرَ – وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ – وما حَسنٌ أن يجزع من شَهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وكيف وقد أربيت [1] على المائة .

يابنى جزاكم الله عنى وعن أخيكم خيرًا ، قوموا لشأنكم وذرونى وشأنى يرحمكم الله » .

وودَّعنا وانصرفنا ، ولا والله ما نجد لأسماء فى الرجال ضَريبة [2] فأين فى النساء ؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء .

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولَدها حتى استجابت لدعوة ربّها رضى الله عنها وأرضاها ، وهى أمٌّ حنَّت تكتم حنينها ولكأنه عجَّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها ، وفلق كبدا عليه حنينها إليه ....

* * *

---

(١) أربى : زاد وأوْفَى .

(٢) الضريبة : النظير والشبيه .

من مذكرات ابن أبى رَبيعة

الحقيقة المؤمنة

« قال عمر بن أبى ربيعة » ... فبادرت أعدو يكادُ ينشقُّ عليَّ جِلْدى من شدَّة العَدْو ، فقد أكلتْ منى السنُّ وتعرَّقتْنى [1] أَنيابُ الكِبَر ؛ فما جاوزت رَوْضة قصر أمير المؤمنين حتى تقطعت أنفاسى من الجهد ، وتلقانى الآذِنُ : ماعدا بِكَ يا أبا الخطاب ؟ فقلت : إيذَن لى على أمير المؤمنين [هو الوليد بن عبد الملك] ، فقد نزل بنا ما لا ردَّ له ، وتبعتُه ... والله إنَّ فرائصى لتُرْعدُ وكأنى محمومٌ قد جرت عليه هبَّةُ ريح باردة ... وغاب الآذنُ : فما هو إلا أمير المؤمنين يستقبلنى كالفزِع ، وقد خرج إليّ فقال : أىُّ شىء هو يا ابن أبى ربيعة ؟

قلت : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين ، فما كان إلّا ومحمد بن عروة [بن الزبير] تحت سناكبها ، فما زالت تضربه بقوائمها ، وما أدركناه إلا وقد تهشم وجهه وتحطمت أضلاعه !! .

وكأنما فارقتنى الروح ، فما أشعر إلا وأمير المؤمنين قائم على رأسى ينضح الماءَ على وجهى ، وقد قُرِّبتْ إليَّ مَجْمرَةٌ يسطع منها ريح المندَلِ الرطِب ، فلما أفقتُ ورجَعَتْ إليّ روحى سألنى أمير المؤمنين أن أقصَّ عليه الخبرَ ...

قلت : خرجنا أنا ومحمد بن عروة وهشامٌ أخوه نريد منزلنا من قصر أمير المؤمنين ، نرجو أن نتخفَّف من بعض ثيابنا ، فقد أنهكنا الحرُّ ... فنظر محمد إلى مرآةٍ من فِضَّة مُجلوّةٍ معلقةٍ فى البيت ، ثم قال : أتذكُر يا أبا الخطاب حَجَّتنا تلك قلت : أيَّتهنَّ ؟ فقد أكثرتَ وعمَّك الحجَّ ، فقال : سرعان ما نسى الشيخ ، لقد كبرت والله يا أبا الخطاب ! وقد حدثنى أبى بالذى كان منك ، فقد كنت تسايره

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٨) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٥

(١) تعرق فلانٌ العَظْمَ : أخذ عنه اللحم

وتحادثه ، فلم تلبث أن سألته : وأين زينُ المواكب [1] يا أبا عبد الله ؟ فقال لك : أمامَك ، فأردت تركضُ راحلتك تطلبُنِي ، فقال لك : يا أبا الخطاب ، أوَلسنا أكفاءً كِرامًا لمحادثتك ، ونحن أولَى أن تسايرنا ، فقلت له : بَلَى ، بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ! ولكنى مُغرًى بهذا الجمال اتّبعهُ حيث كان ، ثم عدلتَ بِراحلتك وضربتها وأقبلتَ إلىّ ، وجعل أبى يتعجب منك وَيضحك ، وقد استنار وجهه ... إحدى سوآتك هى والله يا أبا الخطاب ...

فضحكت لقوله وتناقلنا الحديث وإذا هو ساكنٌ ساجٍ كأنما غشيَته غاشية همٍّ ، فقلت : مابك يا محمد ؟ فزفر والله يا أمير المؤمنين زفرة كأنما انشقت لها كبدى ، ثم قال : أرأيت هذا الجمال الذى تبعته يا أبا الخطاب ، يوشك أن يكون طعامًا يلحسه تراب القبر فما ترى إلا عظما أغبر من جمجمة تقذف الرعب من محجريها . لقد روَّعنى والله يا أمير المؤمنين حتى تطيَّرتُ ومابىَ الطيرَة ، فأردت أن أصرفه عن بعض وهمه أن يكون الصيف قد أوقد عليه حرّه فحيّره . فانطلقنا جميعًا [يعنى هو وهشام ومحمد] إلى سطح البيت نستظل بظلّته ونستروح النسمات وأقبلنا نضحك ونعبث ونلهو من بعض اللهو ، وإذا طائر يحوم يصفق بجناحيه ثم رنّق فكسرهما من الإعياء ثم سقط ثم درج ثم اضطرب قد كاد يقتله الظمأ . فجرى إليه « محمد » ليأخذه فَيبُلّ ظمأه . فخفّ الطائر فهوى إليه محمد ليدركه ، فما نرى والله محمدًا .. قد اختطفه أجَله فجذبه فهوى به إلى اصطبل الدواب ، فيقعِ بينها فيثيرها فتهيج ، وإذا « زين المواكب » تحت سنابكها تضربه ، فما أدركناه والله يا أمير المؤمنين إلا جثة قد ذهب رأسها ، ومانرى إلا الدم ... رحمة الله عليه ، لقد ...

قال أمير المؤمنين : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، فكيف نحتال لهذا الأمر يا ابن أبى ربيعة ؟ قلت : فيم الحيلة يا أمير المؤمنين وقد ذهب القدر بما يُحتال له ! فقال : أههنا أنت ياعمر ، نمت وسار الركب ، هذا أبوه أبو عبد الله شيخ كبير يوشك أن يصاب فى نفسه ، قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا

(١) كان محمد بن عروة يُسمّى زين المواكب ، ربما لجماله وبهائه .

مصابه فى ابنه ، فما مصابه فى نفسه إلا أن يكون الخبر إذ يبلغه ؟ وسأحتال له .
قال أمير المؤمنين : مهلًا ياعمر ، لقد علمت أن أبا عبد الله [عروة بن الزبير بن العوام] كان قد اشتكى رجله ومازال يشتكى ، فبينا نحن الساعة جلوس إذ دخل علينا « أبو الحكم » الطبيب النصرانى ، فاستأذنت أبا عبد الله أن يدَع « أبا الحكم » حتى يرى علة رجله ، فما راعنا إلا « أبو الحكم » يقول إنها الأُكلة ، وإنها قد ارتفعت تريد الركبة ، وإنها إذا بلغت الركبة أفسدت عليه جسده كله فقتلته ، فما بُدٌّ من أن تقطع رجله الساعة خشية أن تدب الأكلة إلى حيث لا ينفع القطع ولا البتر .

فوجَمتُ والله لهذا البلاء ، وقد اختلف به القدَر على شيخ مثل أبى عبد الله فى إدبارٍ من العمر ، وأخذ أمير المؤمنين بيدى وقام . فدخلنا مجلس الخلافة وإذا وجوه الناس قد جلسوا إلى عُرْوة أبى عبد الله يواسونه ويصبّرونه ويذكرونه بقدَر الله خيره وشرّه ، وإذا فيهم سليمان بن عبد الملك أخو أمير المؤمنين ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد حضره ولده هشام فأرَمَّ (١) قد انتُسف لونه من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه . وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عرْوة ، فتفرق الناس إلى مجالسهم ، وإذا عُرْوة كأنْ ليس به شىء ، يرفُّ وجهه كأنه فِلْقة قمر وهو يضحك ويقول : لقد كرهت يا أمير المؤمنين أن يقطعوا منى عضوًا يَحط عنى بعض ذنوبى ، فقد حُدّثنا أن أبا بكر قال : يارسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، فكل سوءِ عملناهُ جزينا به ، فقال رسول الله ﷺ : غفر الله لك يا أبا بكر ؛ ألستَ تمَرضُ ؟ ألستَ تَنْصَبُ ؟ ألست تحزَن ؟ ألست تصيبك اللَّأْوَاءُ (٢) ؟ قال : بلى يارسول الله . قال ﷺ : فهو ما تُجزَون به ، فإن ذاك بذاك . لَوَدِدْت يا أمير المؤمنين أنها بقيتْ بدائها فهى كفَّارةٌ تحتُّ الذَّنْبِ .

---

(١) أرَمَّ : جلس ساكنا لا يتحرك .

(٢) اللَّأْوَاءُ : الشِّدَّة

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك ، غفر الله لك ، وما أعجبُ لصبرك ، فأمُّك أسماء بنت أبي بكر الصديق « ذات النِّطاقين » وأبوك حَوَاريُّ رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام ، فرضي الله عنك وأرضاك يا أبا عبد الله .

فما كدنا حتى أقبل أبو الحكم ، وهو شيخ نصرانيٌّ طويل فارعٌ مَشبوحُ [١] العظام ، قد تخدَّد لحمه ، أحمرُ أزْهرُ أصلع الرأس إلا شعرات بيضًا قد بقيت له ، كثُّ اللحية طويلها ، لو ضربتها الريح لطارت به ؛ ودخل أبو الحَكَم وراء لحيته وهي تسعى بين يديه ، حتى وقف على عروة بن الزبير فقال : لابدّ مما ليس منه بُدٌّ يا أبا عبد الله ، وإني والله لأرحَمك وأخشى أن يبلُغ منك الجهد ، فما أرى لك إلا أن نسقيك الخمر حتى لا تجد بها ألم القطع . قال عروة : أبْعَدَكَ الله من شيخ ، وبئس والله ما رأيت ! إنا والله ما نحبُّ أن يرانا الله بحيث نستعين بحرامه على مانرجو من عافيته ! قال أبو الحكم : فنسقيك المُرْقِدَ [٢] ، يا أبا عبد الله ! قال عروة : ما أحبُّ أن أُسْلَبَ عضوًا من أعضائي وأنا لا أجد أَلَم ذلك فأحتسبه عند الله .

قال أبو الحكم : وقاك الله يا أبا عبد الله ! لقد ألنت منا قلوبًا كانت قاسية ؛ ثم التفت (أبو الحكم) إلى رجال سود غِلاظ شداد قد وقفوا ناحية فقال : أقبلوا ، فأقبلوا ... فأخذتهم عينُ عروة فأنكرهم فقال : ماهؤلاء ؟ فقال أبو الحكم : يمسكونك ، فإن الألم ربما عزب [٣] معه الصبر ، قال عروة : أما تُقلع أيها الشيخ عن باطِلك ، انصرفوا يرحمكم الله ، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي ، ولا والله ما يسعني أن هذا الحائط وقاني أذاها فاحتمل عني ألمها . أقبل يا أبا الحكم ، وخذ فيما جئتَ له ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

---

(١) مشبوح : عريض .

(٢) المُرْقِد : شيء يشرب فيُنَوِّمُ مَنْ شربه ويُرْقِدُه .

(٣) عزب (من باب ضرب ونصر) : بَعُدَ .

فرأيت أبا الحكم وقد برق وجهه وتوقد كأنما أسلم بعد كفر ، ثم نشر درجًا كان فى يده وأخرج منشارًا دقيقًا طويلًا صقيلًا يضحك فيه الشعاع ووُضع الطست ومَد أبو عبد الله رجْله على الطست وهو يقول : باسم الله والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ . تقدم يا أبا الحكم فقد احتسبتها لله . فما بقى والله أحدٌ فى المجلسِ إلا استَدارَ ودَفَنَ وجههُ فى كفيه ، وبكى القوم فَعَلَا نشيجهم ، وإن عرْوةَ لساكن قارٌ ينظر إلى ما يرادُ به ، وكأنما مَلَكٌ قد جاء إلى الأرض يستقبل آلامها بروح من السماء . ووضع أبو الحكم منشاره فى اللحم إلى العظم ، وإن عروة لصائم يومه ذاك ، فما تضور وجهه ولا تقبض ، والمنشار يأكل فى عظمه الحى ، وما يزيد على أن يهلل ويكبر ويسبح الله ، وكأن الدار والله قد أضاء جوها كأنه شعاع ينسكب من تهليله وتكبيره ، ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت وقد غلى فيها على النار ، ودنوا فما هو إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منها وتفجر مثل الينبوع ، فأخذها أبو الحكم يغمسها فى الزيت فيسمع نشيشها فيه حتى حسم الدم . وإذا عروة قد غشى عليه ، وإذا وجهه قد صفِر من الدم ، وقد نجِدَ [١] فنضح وجهُه بالعرق ، ولكنه بقى مشرقًا نيرًا يرفُّ كأنه عَرارة [٢] تحت الندى . قال أبو الحكم : مارأيت كاليوم يا أمير المؤمنين إنه الرجل ، وإنها الحقيقة المؤمِنة ، وإن إيمانه ليحوطه ويثبته ويسكنه وينفض عنه الجزع ، ثم التفت إلى عروة يقول : جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الله ، لأنت والله تمثال الصبر فى إهاب رجل .

وما لبثنا ، حتى إذا أفاق أبو عبد الله جلس يقول : لا إلٰه إلا الله والحمد لله ، ويمسح عن وجهه النومَ والعرق بكفيه ، وينظر فيرى قدمه فى يد رجل يهم أن يخرج بها فيناديه : على رِسْلِك أيها الرجل ، أرنى ماتحمل ؛ فيأخذ قدمه فى يده فيرنو إليها وقد سكن وحرّك شفتيه . ثم يقلبها فى يده ثم يقول لها : أما والذى

---

(١) نجد : سال عَرَقُه .

(٢) العَرارة : نبتة طيبة الريح ، وهى النرجس البرّى .

حملنى عليك ، لقد علمتِ أنى مامشيت بك إلى حرام ولا معصية ، اللهم هذه نعمة أنعمت بها علىّ ثم سلبتنيها أحتسبُها عندك راضيًا مطمئنًّا إنك أنت الغفور الرحيم . خذها أيها الرجل ؛ ثم أضاءَ وجهه بالإيمان والصبر عن مثل الدرة فى شعاع الشمس ... ...

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك يا أبا عبد الله ، وإن فى الناس لمن هو أعظم بلاءً منك ، ياعمر [يريد عمر بن عبد العزيز] ، ناد الرجل من أخوالى [يعنى من بنى عَبْس] فيقبل عمر ومعه رجلٌ ضريرٌ محطومُ الوجهِ لا تُرى إلّا دمامته ، فيقول لهُ أمير المؤمنين : حدّثْ أبا عبد الله بخبرك يا أبا صعصعة ، فيلتفت الرجل إلى عُرْوة ويُقبل عليه فيقول : ابنَ الزُّبير ، قد والله لقيتَ البلاءَ ، يافقيه المدينة وابن حوارى رسول الله ﷺ . وإنى والله محدثك عنى بخبرى عسى أن يرفع عنك : فقد بتُّ ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم عَبسيًّا فى الأرض يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيلٌ جارفٌ كأنه الطوفان ، يتقاذف بين يديه موجًا كالجبال ، فذهب بما كان لى من أهل ومال وولد إلا صبيًا مولودًا وبعيرًا نِضوًا ضعيفًا . فندَّ البعيرُ يومًا والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير أطلبه ، فما جاوزت ابنى قليلًا إلا ورأسُ الذئب فى بطنه قد بعجها بأنيابه العُصل فاستل أحشاءه ، وإن الصغير ليصرخ ، ويركض برجليه الأرض ، فكدت والله أسوخ فى الأرض مما رأيت ، ولكنى ذكرت الله واستعنته واحتسبتُ الصغير فتركته لقدر الله واتبعت البعير ، فهممت آخذ بذنبه وقد أدركته ، فرمحنى رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينىّ ، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ذا بصر ، وإنى أحمد الله إليك ، يا أبا عبد الله ، فاصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . قال عُروة : لقد أفضل الله عليك يا أبا صعصعة وإنى لأرجو لك الجنة .

قال عمر بن أبى ربيعة : وألاح إلىّ أمير المؤمنين أن أقبل ، فدنوت إليه فأسرَّ إلىّ : إن أردت الحيلة فقد أمكنتك ، فاذهب إلى أبى عبد الله فانْعِ إليه ولده « زين المواكب » ، قلت : هو والله الرأى يا أمير المؤمنين ، ثم مضيت إلى عروة وقد غلبتنى عيناى بالبكاءِ .

فلما قاربته قلت : عزاءك يا أبا عبد الله ؛ قال عروة : فيم تعزينى يا أبا الخطاب ؟ إن كنت تعزينى برجلى فقد احتسبتها لله ، قلت : رضى الله عنك ، بأبى أنت وأمى ، بل أعزّيك « بزيْن المواكب » ، فدهش وتلفّت ولم ير إلا هشامًا ولده ، فرأيت فى وجهه المعرفة ثم هدأ فقال : ما لَهُ يا أبا الخطاب ؟ فجلست إليه وتحلّق الناس حوالينا وتكنّفُونا ، وأخذت أحدِّثه بشأنه ، ووالله ما يزيد على أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ، فلما فرغت من خبرى ما زاد على أن قال :

وكنتُ إذا الأيامُ أحدثنَ هالكا أقول شوًى ما لم يُصبنَ حَميمى (١)

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تندّت عيناه ثم قال : اللهم إنه كان لى أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد فيما أخذت وأبقيت ، اللهم أخذت عضوًا وتركت أعضاء ، وأخذت ابنًا وتركت أبناء ، وأيْمُ الله لئن كنت أخذت لقد أبقيتَ ، ولئن ابتليت لطالما عافيت ، سبحانك ربنا إليك المصير . قوموا إلى جهاز أخيكم يرحمكم الله ، وانظروا لا تكون عليه نائحة ولا مُعْوِلة فإن رسول الله ﷺ نهى عن النياحة ، ومُرُوهنّ بالصبر للصدمة فإن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى صبيًّا لها فقال لها : اتقى الله واصبرى ، فقالت : وما تبالى بمصيبتى ! فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت : يارسول الله لم أعرفك ، فقال ﷺ : إنما الصبر عند أول الصدمة .

وجزاك الله خيرًا عنى وعن ولدى يا أمير المؤمنين ، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

* * *

(١) الشّوَى : اليسير الهيّن .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

أيام حزينة

« قال عمر بن أبى ربيعة ... » : وجاء ابن أبى عَتيق [هو عبد الله بن محمد أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق] ، فوالله لأَن كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران علىّ دَوَرانَ الرَّحَى ، أهونُ علىّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ !

كانَ رجُلًا ضَرْبًا خفيفَ اللَّحم أحْمَر ظاهِرَ الدَّم كأنّ إهابَه شُعْلَةٌ تَشِبُّ (١) وتتلهَّب ، أفرعَ فينَانَ الشَّعَر ، مخروطَ الوجه ، أزهَرَ مُشْرِقًا كأنّ بين عينيه نجمًا (٢) يتألّق ، يُقْبل عليك حُرُّ وجْهِهِ بعينين نَجْلاوين قد ظَمِئَ جَفْناهما حتى رقًّا ، يرسِلُ إليكَ طَرفَهُ فترى الضحكَ فى عينيه خِلقَةً لا تكلّفًا ، ما أَحسبنى رأيتُه مَرَّة إلّا خِلْتُه دُعابةً قال لها الله : كونى ! فكانَتْهُ . وكأنى به قد دَخَل على أمّ المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق وهى تَكِيد بنفسها (٣) – فى مرضها الذى ماتت فيه – يَقُول : كيف أصبحت يا أمّاهُ ؟ جعلنى الله فِدَاكِ ! فتقول عائشة : أجِدُنى ذاهبةً يابُنَىّ ! فيقول : فلا إذَنْ يا أمَّ المؤمنين !! فتتبسم عائشة وتقول : حتى على الموت يا ابن أبى عتيق !! فيقول : أَرضاكِ الله يا أمَّاه ! لو جاءنى الموتُ كأكرهِ ما يأتى على حىٍّ ، ماتركتُ له دُعابتى حتى يَستضحكَ ، فيرحَل بى عن الدُّنيا بوجْهٍ غير الذى جاء به !

فلو أنّ امرأً من عُرْض الناس لا أَعرفه ، جاءنى فزعم أنّ نجمًا فى السماءِ

---

* الرسالة ، السنة العاشرة (العدد ٤٤٩) ، ١٩٤٢ ، ص : ١٩٤ – ١٩٦

(١) الضَّرْبُ : الرجل الخفيف اللحم . الإهاب : الجِلْد .

(٢) الأفرع : الطويل الشعر .

(٣) تكيد بنفسها : تجود بها ، وذلك عند الموت .

بكى ، وأن القَمَر مَدّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته ، لكانَ أقربَ إليّ منْ أنْ يأتى آتٍ يقول هذا ابنُ أبى عتيق يمشى فى الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يُعرفُ فيهما البُكاءَ !

رجل صالح تقى خفيف الروح نشوان القلب ، قد انحدر إليه من جده [عبدالرحمن بن أبى بكر الشاعر] ، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المنعّمة تتصبّى له وتتقتّل ، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهّج ... وآب إليه من جده [أبى بكر الصديق] حَنَانُ التقى وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفءَ الأبوّةِ فتأوى إليه وتتضوّرُ ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن ... فابن أبى عتيق من هذين الأبوين كالربيع : جمال وشباب ، ورقة وحنان ، وفرح لا ينتهى .

وكنتُ أجدُه فيما يتوقَّدُ عليّ من الكُرَبِ كالغمامة الغادية : ظِلٌّ ورِيٌّ ، ثم لا يزالُ بى حتى أَنام إلى دُعابته ، فإذا آلامي تطوف بى من بعيدٍ كأنها أَحلام ، بعد أن كانت فى دمى جمرةً تتلذّعُ . ولقد أكونُ مما أستعصى عليه بأحزانى ، فأريدُ أذهبُ عنه نافرًا أبتغى أن أعكُفَ على آلامى كما يعكُفُ العابد على بُدّه [١] ، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد :

مَتى تَرَ عَيْنَىْ مالكٍ وجِرَانَه وجنبَيْه ، تعْلَم أنه غيرُ ثائِر [٢]
حِضَجْرٌ ، كأمّ التَّوْأمَينِ توكلَتْ على مَرْفِقَيْها مُسْتهِلَّةَ عاشِر [٣]

فينشد أغربَ إنشادٍ وأعجبه ، ولا يزال يحرّك ويشير ويمثّل ، فوالله مامن ساعة أنشدنيها هذين البيتين ، وأقبل عليّ يُرينى ما يأتى به ، إلا نَبَع الضحك من قلبى دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكنَ كأنه دمعةٌ خافتة تئنُّ تحت الزفراتِ ، يمشى إليّ

---

(١) البُدّ : الصنم الذى يُعْبَد ، وهو فارسى معرّب .

(٢) الجران : باطن عنق البعير ، واستعاره الشاعر للسخرية .

(٣) الحضجر : العظيم البطن الواسعه ، وهو حرف ساخر الجرس والحركة .

كأن أيّامه تطوفُ به ثاكلاتٍ نائحاتٍ ، يغض طرفه كأنما يُمسك عبرةً همَّتْ هاربة من الأسر ، يطأطئ هامته كأنما يقول للزمن : تَخَطَّ ، فلم يبق بينى وبينك عَملٌ أيها الجبّار ، يستكين حتى لإخالُه يجمعُ أطرافَ نفسه لا يزاحمُ أفراحَ الناس بما يريدُ أن يتنفَّسَ من أحزانِه .

لك الله يا ابن أبى عتيق ! لقد كانتْ لك كالجدول النّامى النمير : هو سرُّ الأرض ، وسرُّ العود ، وسرُّ الزَّهر ، وسرُّ العطر ؛ فلما جَفَّتْ عنك همدت أرضُك ، وظمئ عودُك ، وصوَّحَ [1] زَهرُك ، وتهاربَ عطرُك ... زوجةٌ كانت تستودع روحك مع كل شارق ، ما تتملّى به أفراحك ولهوك ودُعابتك ، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتغرقها فى ذلك البحر الخِضَمّ من الفرح والابتسام والرضى !

* * *

ودخل ابن أبى عتيقٍ فسلَّم سلام الذاهل المتوَلّه ، ثم جلس كأنما هو يلقى عبئًا ثقيلًا كان يمشى به ، ثم نَظَر فى عينىَّ بعينين نديَّتين ترى فى غَوْرهما ذلك التنُّور المتضرِّم يتقاذفُ شُعَلَه فى ثنايا النفس وفى مسارب العاطفة . وأدامَ النَّظر لا يرفعه عنى كأنما يقول : انظرْ واعرفْ ولكن لا تتكلَّم ! فأشهد أنى افتقدتُ ما أقولُ أعزّيه به أو أُرفِّه عنه ، بل كأنما أفرغَ بعينيه فى عينىَّ من أحزانه ، حتى أرانى أجد مسَّ النار فى صدرى وهى تستعر .

ولكنى خفتُ على صاحبى ورفيقى إن أنا سكتُّ له ، أن أكون قد خلَّيت بينه وبين همِّه ، وإن أحدنا لو قَعَد يمارسُ أحزانه يومًا بعد يوم لصرعتْه . أجلْ ! وإن الحزن ليهجُم على النفْس كالسَّبُع الضارى ، حتى إذا عَبَر إليها وقف يستأنس متلفِّتًا يريد ما يختلج أو يتحرّك ، فما هو إلا أن يُهوِى إليه فيبطش به ، أو ينشِب فيه براثنه ينفُضه ثم يقضقضُه حتى يهمَد ، وإذا خُلِّى السبع لا يُذَاد ولا يُطْرد يبقى حتى يتأبّد ويستوحش . ولا يزال على عادته يستمرئُ كل ساعة فريسته يغمس فى دمها أو يَلِغُ ، ثم لا يكفُّ حتى تكفَّ الحياة عما ينبض أو يتنفَّس .

---

(١) صَوَّح : جَفّ ويبس .

وأخذْت أزوِّر له الأحاديث فى نفسى . فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس : عزاءك يا أبا محمد ! فوالله كأنما هِجْت بها الطير الجثوم ، وظل وجه ابن أبى عتيق يروح الدم فيه ويغدو ، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمعَ الذى لا يسفح ، والعَتْب (١) الذى لا يتكلم ، وظلّ صامتًا ، وراحت نفسى تنخزل عما أقدمت عليه ، ولكنه لم يلبث أن زَفَر إلىّ زفرةً خلت فى نفثاتها شررًا يتطاير . ثم قعد يتململ حتى قال :

إن أيامى – يا أبا الخطاب – قد استحالت تيهًا أمشى فيه على مثل هذه الجَمَرات ، ولقد كنت مما عَهِدتُنى ، والأيام من حولى عُرْسٌ لا أعدم فيها ما أُطربُ له . كنت إذا ما حَزِن بعض أيامى ، أجد من أفراح الماضى ما أهرب إليه بالذكرى ، وأتوهَّم من نشوة الآتى ما أترامى إليه بالأمل ، فكنت أعيش بفرحةٍ أحضرُها أو تحضرُنى ، لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم فى الحياة إلا الخير . فأنا وقد أبتْ بغتات القدَر إلا أن تنتزع من كَفَّىّ ماكنت أضنّ عليه ، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيقَ انتزاعَه من فكرى . آهِ ... آهِ ياعمر ! كانت مِلْء عينى وروحى وقلبى . كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلًا عن الألم مهما أمضَّ ، مستصغرًا للكبير وإن فَدَح ، راضيًا باسمًا متحفِّفًا (٢) ... إذ كانتْ هى هى الأمانىُّ تتجدَّد مع أيامى علىّ وتتبلّج مع كل فجر فى قلبى ، ماكنت جزوعًا ولقد جزعت ! كيف قلت : عزاءٍ يا أبا محمد ! ها الله يا ابن أبى ربيعة .

كيف صَبرى عن بعض نفسى ! وهل يَصْبِرُ عن بعض نفسه الإنسان ؟

كانت بينى وبين الدنيا ، وكانت آية الرفق والفرح ، فكنت أرى الدنيا بعينيها مشرقةً من تحت غياهب الأحداث ، فالآن إذ نامت عنى ، كيف أرى إلا قِطعًا من الليل تغتالنى من كل وجه ، أو أشلاءً من الدياجى تجثم لى بكل سبيل ؟

ثم رأيت فى عينيه الملَل وهو يطوى على نظراته ما نَشَرتْهُ الحياة من همة

---

(١) العَتْب : الغَضَب .

(٢) متحفف : لم أجد هذا البناء فى المعاجم ، ولعل أستاذنا نحته من خَفّ ، بمعنى مَرَّ ، يعنى يمشى على رِسْله مهتزا طربا .

النفس ؛ وتخيلته - حتى كدت أتبينه - شبحًا ينساب فى ظُلمة الليل فردًا قد انخلع من الحياة وأسبابها ، فهو يضربُ فى حَشا الظلماء بسآمةٍ لا تهتدى ولا تريد أن تهتدى ، وقد كدت مما شجيتُ له أن أدع إليه الحديث حتى يَستَتِمَّه ، ولكنى أعرف فى قلبه الرقَّةَ ، فخشيتُ أن يَمضِى به الحزن على غُلَوائه ، فقلت له :

مَهْ مَهْ يا أبا محمد ، والله ما أنكرتك منذ عرفتك ، ولكنى اليوم منكر لك أو كالمنكر ؟ أليس لك فى إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ ؟ ما إسلامُكَ النفس للجزع وما غلوُّك فيه ؟ إن امرأً يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه . وإن أمرًا يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا رَيب ، شَقِى بذلك أم سَعِد ، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان . خبِّرنى يا أبا محمد ! هل ابتُلِىَ الناس فيما ابتُلوا به بما هو أفظع من فجيعتهم برسول الله ﷺ ؟ كلا ! فقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة ، وحتى أنكر أحلمهم حلمه ، وحتى إن بعضهم ليوسوس ، فقام إليهم جدُّك الصديق فرد الناسَ إلى أحلامهم ، وهو أشدهم حزنًا على صاحبه ورفيقه ؛ فعلَّم الناس أن الحزن للقلب وحده ، وأن العقل والجوارح إنما هى للعمل ، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه : خيره وشره ، أفأنت من يَجور عن سنة الله وسنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد ؟ كنتَ المرءَ الصالحَ الذى يرى الدنيا بعينىْ زائلٍ ، فما بالك اليوم تراها بِعَيْنىْ متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره ، فهو يتأبَّى أن يدور فى وهمه أنه مفارقها ؟

قال ابن أبى عتيق :

حنانيك ياعمر ! فوالله ما تعلمنى يا ابن أبى ربيعة إلا ما علمت . لقد عَجمتْ[1] منى الحوادث صخرة مُلمْلمة لا تضرع . كم سخرْت من الدنيا وأحداثها ، فجعلْت أطويها فى دُعابتى طَىَّ المُلاءة ! كنت أتخفَّفُ منها بنشوة

(١) عجمتنى : اختبرتنى فوجدتنى صلبا ، وأصله من عَجَم العود ، إذا عَضَّه لينظر أَصُلْبٌ هو أم رِخْو ، ثم استعاروه للشدائد .

أُحْدثها فى قلبى ، فلو كان عليه مثل الجبل من الهمِّ لطار فيها كما تطير خافية [١] من جناح ، ولكنى اليوم ... آه ! لقلَّ ماجرَّبتَ ياعمر ! أسلمتُ لله مُقْبِل أمرى ومُدْبرهُ يصرِّفه كيف شاء . ولكنى أجدُ هذا القلب المُعَنَّى لا يزال يخفق بالذكرى ، أفأنت منكرٌ علىّ ياعمر أن أذكرها نسيمًا رَفْرَفَ بين الجوانح والقلب ؟ أنَّى لى أن أَلوِىَ النفس عن آثارها ، وما أكاد أرى شيئًا إلا خلته يحدثنى حديث الثاكِل : أنينٌ وحنين ؟ فأين المهرب ؟ دع عنك يا أبا الخطاب ! أَأَراكَ تَلْحانى [٢] على الجَزَع ، وما على ظهرِها أشقى ممن يُصبح ليفتقد فى نهاره حُلمًا ضَلَّ عنه مع الفجر ؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومُها كالذى تلوم ؟ وكم وقفت على هذا القلب أذكِّره ما يذكرُ الناس منى ، فإذا الذى كان بالأمس قد أصبح وكأنه أديمٌ مرقوم قد تَفَرَّى [٣] عاثَ فيه البلى فمحاه . أريد ، ويالضلَّتى فيما أريد ! أنا كالسارى فى لُجَّة الليل يلطم فى سوادها ، قد أضاع لؤلؤة يَبحثُ عنها بين الحصى والرمال ! ... لن أعودَ إلى الناس حتى أجد لؤلؤتى ياأبا الخطاب... لن أعود .

ورأيتُ الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول مايجد ، فَرَحِمْته ، ولكنى آثرت أن أدور على بُنَيَّاته ، عسى أن يَأْوِى لهن [٤] فيؤوب إلىّ كبعض ماكان ، قلت :

ظلمتَ نفسَك يا ابن أخى فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك صغيراتٌ ضعيفات ضائعات : فمن لهن بعدك ؟ لو كنتَ وشأنك لهان الأمر ، ولكنك استُحْفِظتَ من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك ، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك ، ومن لا يضئ له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك ، ومن إذا أهمل ضاع عليك ضيعة الأبد . إنهن بناتُك منها وبناتُها منك ، فوالله ماتذكرها ذِكرًا فى شىء هو أكرم وأحب وأرضى عندها منهن ، أجْمِلْ يا أبا محمد ، أجْمِل ! فرفع إلىَّ رأسه ونظر ، ثم ربا صدره بالزفرات وهو يقول :

---

(١) الخافية : الريشة تكون فى مؤخر جناح الطائر ، وهى لينة ضعيفة .

(٢) لحاه : لامه وعذله . (٣) مرقوم : مُزَيّن مُوَشَّى . تَفَرَّى : تَشَقَّق وتقطَّع .

(٤) أوى له : رقَّ له ورحمه .

من مذكرات ابن أبى ربيعة

جريرة ميعاد

« قال عمر أبى ربيعة ... » : ركبتنى الحمى ثلاثا حتى ظننت أن الله قد كتب علىّ أن أذوق حظى من نار الدنيا قبل أن أردَ على نار الآخرة . وكنت أَجِد مسها كلذع الجمرات على الجلد الحىّ ، وأجدنى كالذى وضع بين فكَّيْه ضرسًا من جبل فهو يجرشه جرش الرَّحى ، وظللت أَهْذِى وابن أبى عتيق يتلقف عنى ماكنت أسِرُّ دونه ، حتى إذا قَصَرتْ عنى وثاب إلى عقلى قال ابن أبى عتيق : ويلك ياعمر ! والله لقد فضحتها وهتكت عنها سترها ؛ أما والله لو قد كنت أخبرتنى قبل الساعة لاحتلت لها ، ولوقيتها مما عرضتها له . قلتُ : ويبَك يا ابن أبى عتيق ! من تعنى ؟ قال : من أعنى ؟ مازلت منذ الساعة تهذى باسمها غير معجم ! إنها الثريا ، واليوم ميعادها ، ولقد مضى من الليل أكثره ومابقى منه إلا حُشاشة هالك !

ووجم الرجل واعترانى من الهم ماحبب إلى الحمى أن تكون خامرتنى وساورتنى حتى قضت على ، وطفقتُ أنظر بعينىّ فى بقايا الليل نظرة الثكلى ترى فى حواشى الدُّجى طيف ولدِها وواحدِها . وتمضى الساعات علىّ كأنما تطأنى بأقدام غلاظ شداد لم تدع لى عضوًا إلا رضَّتْهُ . وابن أبى عتيق يذهبُ ويجىء كأنما أصابه مس فهو يرمينى بعينه صامتًا يتحزّنُ لما يرهبُ من فجاءات القدر بى وبها . ثم أقبل على يقول : خبرنى يا عمر أين واعدتها من داركَ هذه ؟ فوالله لكأنما أُلقِى فى سمعى لهبًا يتضرَّمُ ، فلم أسمع ولم أُبصر ودارت بى الأرض ، فما أدرى بم أُجيب ، فلقد واعدتها منزلًا كنتُ أحتفى به لميعادها ، قد استودعته سرى وسرها ، فما أدرى ما فعل به أهل الدار ، وقد ربضتْ بى الحمى بمنأى عنه . ولا والله ماشعرت أن الفجر قد صدع حتى سمعت الأذان كأنه ينعَى إلىّ بعض نفسى ، فما تماسكت أن أنتحبَ . وابتدر إلى صاحبى يكفكف غَرْبَ [1]

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٥٥٠) ، ١٩٤٤ ، ص ٦٩ - ٧٢

(١) غَرْب كل شىء : حَدُّه .

أحزاني . وقال : خَفِّض عليك ياعمر ، فإن هذا يهيضُك إلى ما بك . وما تدرى لعل الله يحدث بعد عسر يسرا . قم إلى وضوئك أيها الرجل ، واستقبل بوجهك هذه البنية ، وادع الله جاهدًا أن يستر ما هتكت ، فإنهنّ النساءُ لحمٌ على وضمٍ إلا ما ذُبّ عنه (١) .

فما كدتُ أفرغُ من صلاتى حتى جاءت جاريةٌ صغيرةٌ تعدو قد أنزفَها الجرى ، ورمتْ إلىّ كتابًا فى سَدَقةٍ من حرير يفوح منها العطر ، وقالت : سيدتى تقول لك : فى هذه شفاءٌ من داء . واستدارت وانطلقت تسعى . فنظرتُ وشممتُ ونشرت الحريرة المطوية عن كتاب مطوى طىّ العَجَلةِ ، وإذا فيه : « جئنا لميعادِك ، فإذا شبحٌ نائمٌ فى بُرْدِك فرميتُ نفسى عليه أُقَبِّلُه ، فانتبه وجعل يقول : اعْزُبى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله . ودفعنى فعدوتُ أفرُّ بنفسى من فضيحة تنالنى فيكَ وما شعرتُ أنك محموم حتى أنبأتنى بذلك أختى ، فويلى عليك وويلى منك ياعمر ! » . فألقيتُ الكتاب إلى ابن أبى عتيق ، وأستعفى به أن يدبر منذ اليوم ما أتقى به خَبْءَ الليالى ، فنظر إلىّ بعينين زائغتين من سهر وسهاد وقال : والله ياعمر لكأنى بك قد ركبتَ إلى بلائك وبلاءِ الثريَّا حين قلتَ :

تشكَّى الكُمَيْتُ الجَرْىَ لمَّا جهدته ... وبيَّن لو يستطيع أن يتكلما (٢)

وما أدرى كيف أحتال لك فى أمرٍ قد انفلتت من يديك أعنَّته ، فدعِ الأمر لله يدبره ، ووطن نفسك على الثقة ، ولا تجزع لبغية إن جائتك ، والق من يلقاك بالفضيحة كأتم ماكنت بشاشةً ورضًى وسكينة ؛ فأنت خليق أن تنقذها مما ورطتها فيه . وإياك والتردد ، فإنه مدرجة النكبات . ولقد عهدتك صَنَع (٣) اللسان ، فإن لم ينفعك اليوم لسانك فلا والله لا نفعك . قلت : جزاك الله عنى خيرًا يا ابن أبى عتيق ، ماضرَّنى كتمانى دونك ما أكتم إلا اليوم ، ولو كنت أعلم

---

(١) الوَضَم : الخشبة أو ما شابهها التى يقطع عليها اللحم . وهذه العبارة من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) الكميت : الفَرَس لونه بين الحمرة والسواد .

(٣) الصَّنَع : الماهر الحاذِق .

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ويلى من نفسى ثم ويلى منها ! واعلم أنه ما يكربنى أن يلقانى من أحتال له وأصرفه ، وإنما يكربنى أمر الثريا وهى تقضى الساعات قد ألقى الهَمّ فى دمها ناره وفى فكرها ظلمته ، ولا والله ما أستطيع أن أحتال لرسول يُلِمّ بها فيقول لها بعض ما تسكن إليه .

قال ابن أبى عتيق : فهلَّا حدثتنى عنها ياعمر ؟ فلقد صحبتك ما صحبتك وما أدرى من خبر الثريا وأمرها إلا ما أتسقّطه (١) من حديث الناس . قلت : وما تبغى إلى ذلك ؟ أما كفاك ما تعرف من أمر سائرهن ؟ وإنى لأراك كالمنهوم الذى لا يشبع ، فلو كنت مثلى لقلت عسى أن تكون لك فى نفسك حاجة ، ولكن الله عافاك مما ابتلانى به ، فدع عنك الثريا وأخبارها . فورب السموات والأرض وما فيهن ما أمنت على سرها نفسى ، فكيف بى إذا بُحْتُ لك ؟ قال : إذن فصِفْها لى كيف تراها ؟ قلت : أما إنك على ذلك ، لشديد الحرص شديد الطمع . وما تبغى إلى امرأة من النساء تسمع من نعتها وحليتها وصفاتها ؟ لولا أن كنت اليوم شاهدى لما حدثتك بحرف . يقول الناس : ما فعل الله بابن أبى ربيعة ؟ ما زال يمد عينيه إلى كل غادية ورائحة حتى أفضى إلى الثريا ، فتعلق منها بنجم لا يناله وإن جَهِدَ . وإنها لعرضة ذلك جمالًا وتمامًا ، وإنى لخليق أن أفنى فيها نور عينى وقلبى . ويقول الناس : ما الثريا ؟ إن هى إلا امرأة دون من نعرف من النساء حسنًا وبهاءً . وقد والله كَذَبَتْهم أعينهم ، وإنى لبصير بالنساء خبيرٌ بما فيهنَّ ، ولئن كنت قد عشت تبيعًا للنساء أنقدهن نقد الصيرفى للدينار والدرهم (٢) فأنا أهل المعرفة أحقِّق جيادها وزيوفها بأنامل كالميزان لا يكذب عليها ناقص ولا وافٍ .

ما يضيرك يا ابن أبى عتيق أن ترى الثريا أو لا تراها ، فإنك لا تراها بعينىَّ ، وإنما أنت من الناس تضل عن جمالها حيث أهتدى إليه ، وتسألنى كيف أراها ؟ فوالله إن رأيتها إلا ظننت أنى لم أرها من قبل ، فهى تتجدد فى عينىَّ وفى قلبى مع كل طرفة عين ، ولئن نعتها لك فما أنعت منها إلا الذى أنت واجده حيث سِرْت

(١) تسقّط الحديثَ : أخذه شيئا بعد شىء .

(٢) نَقْد الصيرفى للدينار والدرهم : تمييزه لما هو صحيح ولما هو زائف .

عن النساء : غادة كالفنن (١) الغَضّ يميد بها الصبا وسكر الشباب ، لم ترْبُ رَبْوةَ الفارعات (٢) ، ولم تجف جفوة البدينات ، ولم تضمر ضمور المهزولات ، ولم تُمسح مسحة الضئيلات (٣) ، ولم تقبض قبضة القصار القميئات ، فتمَّ تمامها بضَّة هيفاءَ أُملودًا (٤) ، خفاقة الحشا هضيمة الكشحين مهفهفة الخصر ، تتثنى من اللين كأنها سكرى تترنح . فلو ذهبت تمسها لمَسْست منها نَعمة وليانًا وامتلاء ، قد جُدِلَت كلها جَدْل العصب ، فهى على بنانك لدنة تُرْعد من لُطفها واعتدالها . وانظر بعينى يا ابن أبى عتيق ، تُبصر لها نحرًا كذَوْب الفضة البيضاء قد مسها الذهب ؛ فلا والله ماملكت نفسى أن أعب من هذا الينبوع المتفجر إلا تُقًى لله أن أدنِّسه بشفتين ظامئتين قد طالما جرى عليهما الكذب والشِّعر . أما وجهها فكالدرة المصقولة لا يترقرق فيه ماء الشباب إلا حائرًا لا يدرى أين ينسكب إلا على نحرها الوضاء ، يزينه أنف أشمُّ دقيق العرنين لطيف المارِن (٥) ؛ فإذا دنوت إليها فإنما تتنفس عليك من روضة معطارٍ أو خمرٍ معتقةٍ ، فاذهب بنفسك أيها الرجل أن تزول عن مكانك كما يقول صاحبنا جميل :

فقام يجرُّ عطفية خُمارًا وكان قريب عَهْدٍ بالمَماتِ

ودَعْ عنك عينيها يارجل ، فلو نظرتْ إليك نظرة لَوَجَدْتها تنفُذ فى عينيك تضئ لقلبك فى أَكنّته مساربَ الدم فى أَغْوار جوفك ، ولتركتك كما تركتنى أسير بعينين مغمضتين ذاهلتين إلا عما أضاءتْ لك فى الحياة عيناها . فإذا دنتْ إليك فكُنْ ما شئت إلا أن تكون حيًّا ذا إرادة تطيق أن تتصرف ، وذَرْ كل شىء إلا عطر أنفاسها وضياءَ وجهها ، وغمامةً تظلل روحك النشوى طائفة عليك بأطراف شعرها المتهدِّل كحواشى الليل على جبين الفجر ، وخذْ بنانًا رَخْصًا مطرَّفًا (٦) كثمار العُنّاب تغذوها يدٌ بضة بيضاء يحار فيها مثل ماءِ الصفا ، فلقد قبّلتها يومًا

---

(١) الفَنَن : الغُصْن المستقيم . (٢) الفارعات : الطويلات ، أى ليست مفرطة الطول .
(٣) أى ليست صغيرة العجيزة . (٤) الأملود : المرأة المتثنية الناعمة .
(٥) المارن : طرف الأنف . (٦) المطرف : مُخَضَّب الأظافر .

قُبلةً ظننت أن قد أطفأت بها غليلى فزادتنى غُلَّةً وصدًى ، فما نفعنى فى نار هذه الحمى إلا ما لم أزلْ أجد من بَرْدِها وطيبها وعذوبتها على شفتى حتى اليوم . ولا والله إنْ [١] رأيتُ كمثلها امرأةً إذا حدثت ، فكأنما تسكب فى روحى سرَّ الحياة يهمس عن شفتين رقيقتين ضامرتين كأنّ الدم فيها مكفوف وراء غلالة من النعمة والشباب . فآه من الثريا ! لقد حجبت عنى كل نجم كان يلوح لى فى الدياجى يُلهمنى أو يُغوينى ... وَىْ ، ما دهاك أيها الرجل ؟

ورأيت ابن أبى عتيق يتخطانى بعينيه ينظر إلى الباب من ورائى ، قد انتُسِف وجْهه وغاض من الدم كأنما يرى هَوْلًا هائلًا قد أوشك أن ينقض عليه ، وما كدت أرد الطرف حتى سمعت من يقول : السلام عليكما يا عمر ! وأنت يا ابن أبى عتيق ما لك تنظر إلىّ كالمغشى عليه لا ترفُّ منك عاملة ولا ساكنة ؟ وما بك يا أبا الخطاب ! أترى الحمى كانت منك على ميعاد ؟ لقد أقبلت أمس من سفرى ، وكان الليل قد أوغل فتلقانى ولدك جوانٌ فأنبأنى أن الحمى قد وردتك فأردعت [٢] عليك أيامًا فنهكتْك حتى خيفت عليك بُرَحاؤها [٣] ، وأن ابن أبى عتيق جزاه الله عنا وعنك خيرًا أبى إلا أن يتعهدك بمرضك حتى تبرأ وتستفيق ، وإنى لأراك بارئًا يا أبا الخطاب .

فوالله لقد سكنتْ نفسى لما أتم كلامه وسكتَ ، وأدنى يده يجسُّنى جسَّ المشفق ، ورأيت ابن أبى عتيق يثوب كأنما كان فى كرب يغتُّه [٤] ويعصرُه ثم أرسله فعاد إليه الدم . فهذا أخى الحارث (هو الحارث بن أبى ربيعة أخو عمر) سيد من سادات قريشٍ شريفٌ كريم عفيفٌ ديّنٌ ، ما رآه امرؤ إلا دخلته الرهبة له حتى تتعاظمه . فما زاده أن كانت أمه سوداء من حَبش إلا رفعةً ومكانًا . ولقد كان عبد الملك بن مروان ينازع عبد الله بن الزبير أمر الخلافة ، وكان ابن الزبير

---

(١) إن : هنا حرف نفى .

(٢) أردعت : من الرُّداع ، وهو وَجَعُ الجسم أجمع .

(٣) بُرَحاؤها : شِدَّتها .

(٤) الغَتُّ والعَصْر بمعنى ، وفى حديث المبعث « فأخذنى جبريل فغَتَّنى » .

قد ولّى الحارث بعض الولايات ، فلما جاءه النبأ بولاية الحارث قال : أرسل عوفًا وقَعَد ! ولا حُرّ بوادى عَوْفٍ [١] . فابتدر من المجلس يحيى بن الحكم وقال : ومن الحارث يا أمير المؤمنين ؟ ابن السوداء ! فقال له عبد الملك : خسئتَ ، فوالله ما ولدتْ أمةٌ خيرًا مما ولدت أمه !

ثم صرف الحارث وجهه إلى ابن أبى عتيق وهو يبتسم له وقال : أما زلت يا ابن أبى عتيق بحيث قال صاحبك فيما بلغنى من شعره إذ يقول لك ؟

لا تلمنى عتيقُ حسبى الذى بى ... إنّ بى ياعتيق ما قد كفانى
إنَّ بى داخلًا من الحب قد أَبْـ ... ـلَى عظامى مكنونُه وبرانى
لا تلمنى وأنت زيَّنتها لى ... أنت مثل الشيطان للإنسان

فقال ابن أبى عتيق : هُديت الخير ، فوالله إن أخاك لشاعر يقذف بباطله ، ولقد وقعت فى لسانه ولقيت من دواهيه . ثم نظر إلىّ الحارث وقال : أما وقد لقيتك بخير ياعمر ، فإنى منصرف إلى وجهى ، وبالله إلا ما تقدمت إلى أهل بيتك أن يعدوا لى المنزل الذى نزلته بالأمس حتى أعود ، وإنى أرى الريحان قد ذبل فَمُرْهم أن يستبدلوا به ، وأن يطيّبوا الفراش ويجمروه . وقل لطائف الليل أن لا يلم بنا ؛ فلسنا من حاجته ولا هو من حاجتنا . فما تمالكت أن قلت له : ويحك ! أفهو أنت ؟ قال : أجل هو أنا أيها الفاسق ! قلت : إذن فوالله لا تمسُك النار أبدًا وقد ألقت نفسها عليك وقبّلَتك . فقام مغضبًا يفور وقال : اعزُبْ ، عليك وعليها لعنة الله !

وانطلق الحارث واستفقت من غشيَة الحُمَّى وما نزل بى من الغم لما فاتنى من الثريّا . وقال ابن أبى عتيق : قد والله أسأت فما ترانى كنت أحدثك من جوف الليل أنهاك أن تجزع لبغتة إن جاءتك ، فوالله لشدَّ ماجزعت وخانتك نفسك وأرداك لسانك ! ولبئسما استقبلت به أخاك ! ولقد كنت أقول لك إن التردد

---

(١) لا حُرّ بوادى عوف : مَثَلٌ ، يضرب لكل مَن ناوأ مَن هو أشدّ منه قوة وأعز سلطانا فخضع وذلّ .

مَدْرَجَة النكبات فإذا جرأة لسانك مَدرجَة إلى كل بلاء ، وإلا (١) والله لا تفلح أبدًا أيها الرجل .

فلقد اضطرب عليَّ أمرى حتى ما أدرى ما أقول ، ثم سكَّنت نفسى وقلت له : أفرخ روعك يا ابن أبى عتيق ، ولتعلمن اليوم دهاء عمر ، فأرسل فى طلب ابنتى « أمَة الوهاب » والحقْ أنت الحارث فردّه على . وانطلق ابن أبى عتيق ، ولم ألبث حتى جاءتنى أمَةُ الوهاب ، فقلت لها : يابنية ! أشعرت أن عمك الحارث قد نزل بنا الليلة ؟ قالت : كلا يا أبَهْ ! قلت : إذن فانطلقى إلى هذه الغرفة التى إلى جوارى وتباكى وانتحبى ما استطعت حتى أنهاك . ففعلت ، وجاء الحارث وابن أبى عتيق ، فقلت له : جعلت فداءك ! مالك ولأمة الوهاب ابنتك ؟ أتتك مسلمة عليك فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وها هى تيك باكية . فقال : وإنها لهى ! قال : ومن تراها تكون ؟

فانكسر الحارث كأنما اقترف ذنبًا لا يعفو الله عنه إلا رحمة من عنده ، وقال : فما بالك وما كنت تقول ؟ فقال ابن أبى عتيق : ذاك هذيان المحموم يا ابن أخى ، ولو أنت كنت الليلة إلى جانبه لسمعت من بوائق (٢) لسانه ما تصطك منه المسامع . وإنى لأظن الحمَّى هى التى خيلت له حتى أُنطقته ببعض تكاذيبه . قال الحارث : والله لشد ما يغمنى أن يدع عمر كل خير فى الدنيا ، وكل ثواب فى الآخرة ، وأن يحبط أعماله بما يسول له شيطان نفسه وشيطان شعره ، فيهتك عن الحرائر ما ستر الله . ولقد طالما نهيتك ياعمر عن قول الشعر فمازلت تأبى أن تقبل منى ، أتراك فاعلًا لو أعطيتك الساعة ألف دينار ذهبًا على ألا تقول شعرًا أبدًا . قلت : قد رضيت ! قال : فهى منذ الساعة فى ملكك .

قال عمر بن أبى ربيعة : فما أخذتها منه إلا لأهديها إلى الثريا عطرًا ولؤلؤًا وثيابًا من تحف اليمن . أما الشعر فوالله لا أتركه لأحد ، رضى الحارث عنى أو غضب .

---

(١) كذا بالأصول ، والسياق يقتضى أن تكون : ولا .

(٢) البوائق : الدواهى .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

« قال عمر بن أبى ربيعة » :

« لم أزلْ أرى كَلْثَم « هى بنت سعد المخزومية زوجة عمر » أجزلَ النساء رأيًا وأصلبهنَ مكسِرًا [١] ، وأقواهُن على غيرة قلبها سلطانًا ، حتى إذا كان مُنذ أيام رأيتُ امرأة قد استعلن ضعفها ، وتهتَّك عنها جَلَدُها ، وعادتْ أنثى العقلِ يُغْويها الذى يغريها .

« وإن أنسَ لا أنسَ يوم احتلتُ عليها حتى دخلت إليها ، وقد تهيأت لى أجملَ هيئة وزينت نفسها ومجلسها ، وجلست من وراء السِّتْر ؛ فلما سلمتُ وجلستُ ، تركتنى حتى سكنت ، ثم رفعت السِّتْر عن جمال وجه يخطفُ الأبصارَ ، ثم رمت فى وجهى تقول : أخبرنى عنك أيها الفاسق ! ألست القائل كذا وكذا ؟ تعنى أبياتًا لى ، فمازلتُ أفتِلُ فى الذِّرْوَة والغاربِ [٢] ، وهى تَنِدُّ علىّ وأنا مقيم عندها شهرًا لا يدرى أهلى أين أنا ، ولا أدرى ما فعل الله بهم . ولا والله ما مرّ علىَّ يوم إلا حسبتها امرأة قد خلقتْ بغير قلب ، لما ألقاه من عنادها وامتناعها ، وإنى لآتيها بالسِّحْر بعد السحر من حديث تحنُّ عليه العوانس المعتصماتُ فى مَرَابِئ الزمن ، وأنا يومئذ شاب تتفجّر الصَّبْوة من لسانى ، ويتلألأ الغزلُ فى عينىَّ ، وهى يومئذ غادة غريرة لو نازعها النسيم ، فيما أُرى ، لاستقادتْ له من دَلِّها ولينها وغضارة العيش . ولبثت شهرًا أقول وأحتال وأستنزلُ عُصْمها [٣]

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠١) ، ١٩٤٤ ، ص : ٣٧ - ٤٠

(١) يقال رجل صُلْبُ المَكْسِر ، على المدح والثناء ، وذلك إذا كان باقيا على الشدة لا يلين ولا ينخزل .

(٢) هذا مَثَلٌ . الذروة : أعلى السنام. والغارِب : مابين السنام والعنق ، وأصله أن يكون البعير مُصْعَبا . فيحكّ صاحبُه سنامَه وغاربَه ، ويفتل الوبَر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك ، ويخدعه حتى يمكن منه فَيخطمه .

(٣) العُصْم : من الوُعول ما فى ذراعيه بياض ، وهى تسكن أعالى الجبال .

برُقى السحر ، حتى إذا قلت قد دانتْ ، انفلتت مصعِّدَة قد تركتنى شاخصًا أنظر إلى صيد قد طار ، ثم أطرق ناظرًا إلى سحر قد بطل . فلما اشتد ذلك علىّ استأذنتها فى الخروج إلى أهلى ، وقد يئست منها ومن هواها ، فما سمعت حتى قالت : « يمينَ الله أيها الفاسق ! بعد أن فَضَحتنى ؟ لا والله لا تخرج أبدًا حتى تتزوجنى ! » فتزوجتها وهى أحبُّ النساء إلىّ أن أتزوَّج ، ومازلتُ معها وأنا لا أنكرُ منها شيئًا ، وأقول الشعر تأخذه الألسن لتشيعه إلى الآذان ، وأدخل بيتى فألقاها فلا أسمعُ منها قلتَ وقلتَ ! فيكرُبنى إغفالُها لما يبلغها من الشعر ، فألجُّ على النسيب ، وأذهب كل مذهب فى التشبيب ، وأتبعُ النساء بعينىّ وقلبى ، وأقولُ ، فلا والله ما نَبَضَ لها قلب ولا تحركت لها جارحة ، ولقد أدخُل عليها فإذا هى تلقانى ضاحكة لاهية ، حتى أقول : لعلها لم تسمعْ ! فأنادى مولاى وأملِي عليه ، وهى بحيث تسمعُ ما أملِي ، وأتخلل الإملاء بالشكوى والحنين وأرفع بهما صَوْتى ، ثم أنهضُ ألقاهَا فما أرى وجْهها يربَدُّ أو يتمعَّر [١] ، فكان ذلك غَيظى وشِقْوَتى ، لا تزيدُهما الأيام إلا اتقادًا . ويْلُمِّه كيلًا بغير ثمن ! كم ذا أُغِيرُها فلا تغارُ !

وأقبلتُ ذلك اليوم ، بعد مرجعى من الكُوفَة بشهر أو أكثر ، فاستقبلنى جُوان (هو ولد عمر من كلثم) فقال : « يا أَبَهْ . أُمى ، مافعلت بها ؟ » . قلت : « أمك ! بخير يابُنىَّ وَعداهَا السوء » . قال : « كلَّا يا أَبَهْ ، وما أدرى ما بها ، غير أنى ظللتُ أيامًا أستخبرها ، وهى خالية ، عما يريبها أو يؤذيها ، فلا أسمعُ منها إلا ما تنشده من شعرك .

كُنَّا كَمِثل الخمْرِ كان مِزَاجَها ... بالماء ، لا رَنْقٌ ولا تكديرُ
فإذا وذلك كان ظِلَّ سَحَابة ... نَفَحَتْ به فى المُعْصراتِ دَبورُ [٢]

« ثم تنظر إلىّ وتقول : ياجُوان ، امضِ لشأنِكَ ، ولا تَنْسَنِى فى صلاتِك ، فوربِّ هذه البنيَّةِ ، لقد حملتُك ووضعتُك وأنا أدعو الله أن يُجنّبنى الشيطانَ ، وأن

---

(١) تَمَعَّر : تغيّر وتقبّض غَضبًا .
(٢) الدبور : ريح حارة تهب من جهة الجنوب .

يجنّبَ الشيطانَ ما يرزُقنى ، فكنتَ أنتَ يا بُنىّ دَعوتى ، فادعُ ربَّك ياجُوان لأمك التى حملتك وهنًا على وَهن .

فابْكِ ماشئتَ على ماانقضَى　　　كل وَصْلٍ مُنْقَض ذاهبُ
لو يردُّ الدمعُ شيئًا ، لقد　　　ردَّ شيئًا دمعُك الساكِبُ

فأقول : « يا أماه لقد أفزعتِنى ! » فتقول : « اذهبْ يا بُنىّ « لو تُرِكَ القَطَا ليلًا لَنام » (١) . ثم تشيحُ وتنصرفُ ، ولا والله ماقدرتُ منها على أكثر من أن أسألها فتجيبنى بمثل ما أخبرتُك . فبالله ، يا أَبَهْ ، لاتدع أمى تموتُ بحسرة تتساقط عليها نَفْسُها ! ارحمها يرحمك الله .

ويذهبُ جُوان ويَدَعُنى لما بى ، ويأخذنى ماحَدُث وما قَدُم ، وكيف ولم أُنْكِرْ منكِ يا كلثمُ شيئًا منذ رجعت من غيبتى بالكوفة ؟ وإنى لأدْخُلُ عليها فتُدَاعبُنى وتضحك لى وتذهبُ بى فى لهوها مذاهبَ ، ولا والله إنْ وقعتُ منها على مَسَاءة تضمرها أوهمّ تكتمه ، وكأن الحياة قد منعتْ دونها غِيَرَ النفس فهى لا تتغير . وهذا جُوان يقول ، فلئن صَدَقَ لقد كذبتنى عيناى وكذبَ علىّ قلبى ، وإن كلثم لَتلهُو بى وتتلعّبُ وأنا فى غفلة عن كُبْر شأنها وأساها ! وأذهب من ساعتى أدور فى الدار أنظر ، فإذا كلّ شىء أراهُ قد لبس من همّ نفسى غلالة سوداء نشأت بينى وبينه ، وإذا أيامنا المواضى قد بُعثتْ فى أسْمال هلاهيل تطوف متضائلة فى جنباتِ البيت وهى تنظرُ إلىّ نظرة الذليل المطرَّد المنبوذ ، وإذا كلثم قد خرجت إليهنّ كاللبؤة المُجْرِية (١) رِيعتْ أشبالُها ، وإذا أنا أسمعُ همهمة كأنين الجريح تنفذُ فى أذنىّ من حيثما أصْغَيتُ ، وماهو إلّا أن أرانى فى فراشى قد توكأتُ على مرفقى ، والغشيةُ التى أخذتنى تنقشعُ عنى شيئا بعد شىء . وبعد لأيٍ ما ذكرت ماكان من حديث جُوان كما كان ، فنهضت من مكانى أطلب كلثم فى غِرَّتِها حيث هى من البيت .

وقصدت مقصورتها فإذا هى قد أجافت الباب (٣) ، فذهبت أفتحه وإنّ يدى

---

(١) هذا مَثَلٌ ، يضرب لمن يتنبه لنوازل الشر فيأخذ حذره .

(٢) المُجْرِية : ذات جِرْو ، وهو ولدها .　　　(٣) أجاف البابَ : رَدَّه عليه .

لتأبى علىّ أن تمتد خشية أن أطلع منها على ما يسوؤنى ، وهى أحبُّ إلىّ من أن أراها مغمومة أو مكروبة على غير ما عودتنى وعودتها . فأستأذنها من ورائه قالت « مهلًا يا أبا الخطاب ، وبخير ما جئت » . فقلت لنفسى « كذب والله جُوان وما كان كاذبًا » . فلما فتحتْ لى الباب رأيتُ سُنَّة وجه كالسيف الصقيل يبرق شبابًا ورضى ، وقالت « مرحبًا بك ياعمر ، لو رأيت الساعة جاريتى وهى تدخلُ على ساعية تجرى تقول : سيدتى أَدْرِكى مولاى فقد سمعت الناس يتناشدون من شعر قاله اليوم ، وإذا فيه .

ليس حُبٌّ فوق ما أحبَبْتُها　　　غير أن أقتل نفسى أو أُجَن

فاحفظيه ياسيدتى من روعة المصيبتين . فقلت لها : لقد وقى مولاك السوءَ أن ليس بينه وبين الناس إلا لسانه ! ولا يقتل مولاك نفسه أو يجنّ حتى يقتل الحمام نفسه على هَدِيله (١) أو يجنُّ » .

لم أدر ما أقول ، فقد كانت كلماتُ جوان قد تشبحّتْ لعينىّ ودوَّت فى أذنى ، فما أطقتُ صبرًا أن أسألها : « مايقولُ جوان ؟ زعم أنك لا تزالين مهمومة لأمر يستخبرك عنه فلا تخبرينه ، ولقد مضت السنون بينى وبينك ، ولا والله ما علمتُ إلا خيرًا ولا رأيت إلا خيرًا ، وما قال إلا ما يجعلنى آسَى على ماكان منى إليك مما ساءك أو رابك » . وماكدتُ أتمُّ حتى رأيتها تنتفض كالرشأ المذعور أفزعته النبأة (٢) ، وبَرِقَت فتخاذلت وغَرِقَ صوتها فما تنطقُ فخاصرْتها (٣) ومشيت بها إلى مجلس فى البيت وجلست أتحفَّى بها حتى تهدأ . وبعد قليل ما قالت : « أما إذا كان هذا يا أبا الخطاب فوالله إنْ كتمتُك شيئًا » .

ثم أطرقت ساعة ، وأنا أنفذُها ببصرى أطلب غيب ضميرها ، ثم رفعت إلىّ بَصَرها ونظرت نظْرَة المرتاب ثم قالت « إنى مُحَدِّثتُك يا أبا الخطاب عما كان

---

(١) الهديل : فَرْخ – زعموا – كان على عهد نُوح عليه السلام فهلك ضيعة وعطشا ، فيقولون إنه ليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه .

(٢) النبأة : الصوت الخفىّ ، يَنُمّ عن الصائد .

(٣) خاصرتها : أخذت بيدها فى المشْى .

كيف كان . هذه جاريتي ظمياءُ تدخل عليَّ كالمجنونة منذ أيام تقول : « سيدتي ، يمين الله أن تكتمي عليَّ ما أقول » . فأقول : « أمنتِ ياظمياء ! ما يروعك » ؟ فتقول : « لا والله ما يروعني إلا أن أدع مولاتي توصم بين نساءِ قريش وبني مخزوم ، ويتحدث أهل مكة أن أم جوان قد لقيت من البلاءِ كذا وكذا » . فأقول : « ويبك ياظمياء ! انظرى ماتقولين ! » . فتقول : « لا والله إنْ هو إلا الحقّ ، أرأيت إلى تلك البيضاء الصهباء ذات العينين التي مازلت تجيئني منذ أيام ، لقد قالت لي في عُرض حديثها : يا ظمياء لقد جئت مكة من بلادٍ بعيدة ، وإني لأسمع الناس على الطريق يذكرونها ويذكرون بيت الله الحرام ، فما ازددت إلا شوقًا أن أرى بيت الله الحرام ، وأن أرى الناس يجاورون هذا البيت العتيق ، وما وقع في قلبي إلا أن أرى دنيا لم أرها ، وقومًا كتب الله لهم أن يكونوا أطهر وأتقى الناس لله . ولقد خرجتُ من بلادى وهي أبغضُ إليَّ لما أرى من فجور أهلها وانغماسهم في كل إثم وباطل ، وكنت أرى أشد أهلنا فجورًا ولجاجًا أولئك الشعراء . ثم دخلت بلادكم وطوّفت فيها ما طوّفت حتى إذا انتهيت إلى أرضكم هذه ، لم أزل أعرف الشعراء فيكم أَفْجَر وأفسق وأضلّ » .

« فما أطقت أن أصبر ياMولاتي حتى قلت : « مَهْ ياصهباء ، وكذبتِ . وأين بنو الأصفر (١) من بني يعرب ؟ فإن شاعر العرب ليقول ، وإن قلبه لأطهر من أن يدنسه ما يدنس به شعراؤكم أنفسهم يابني الأصفر . وهذا مولاي وهو أغزل العرب لسانًا ، وما علم أحد عليه سوءًا . قالت صهباء : ما أحسن ما رباك أهلك ياظمياء ! وأحسني ماشئت ظنك في مولاك . قلت : تبًا لك . وإنك لَتُرِيغين (٢) إلى مولاي منذ اليوم ، فلا والله لقد كذبتِ وخسئت أيتها الصهباء الطارئة التي لا مولى لها . فقالت صهباء : كذبتُ وخسئتُ ! ما أصدق ماقال مواليك « من دَخل ظَفار حَمَّرَ » (٣) ! وإنك لغريرة ياظمياء ، وأنا الصهباء الطارئة من بنات الأصفر لَأُخْبِرُ منك بغيب مولاك عمر . قلتُ : كيف قلتِ ؟ قالت : إنه الحق ، وإن لمولاك غيبًا

---

(١) بنو الأصفر : هم الرُّوم .

(٢) أراغ إلى فلان : طلبه سرا في خفاء للإضرار به .

(٣) ظفار مدينة يمنية كانتِ لِحِمْيَر . وحَمَّر : تَعَلَّم الحِمْيَرِيَّة ، وهذا مَثَلٌ .

عميت عنه عينك وعين مولاتك ، وهو أحرص عليه من أن يطلع على خَبْئه أحد قلت وأنّى لك أيتها الغريبة ؟ قالت : دعى عنك ، فهو الذى أحدثك .

« ثم دنتْ مِنّى كالتى تُسِرُّ إلىّ ، وقالت : ماكذبتُك أيتها الحُلْوَة الغريرة ، فهذا مولاكِ قد ذهب إلى الكوفة منذ زمن ، ألم يكن ذلك ؟ وهذا مولاكِ قد نزل بأفسق خلق الله وأخْبثهم عبد الله بن هلال الحميرىّ الذى يزعُم أنه صديق إبليس وخَتَنُه [١] وصاحب سرّه ، وإذا هذا الفاجر يخرجُ إليه قَينتينِ من أجمل خلق الله وأَحسنه يغنيانه بشعره حتى ذهبَ عَقْلُه ، وإذا هو يديرُ مولاك يوما بعد يوم على أن يُفتَتَن بهما ، حتى إذا بلغ منه ما أراد ضمن له أن تكونا بالطائف بحيث لا تراهما عينُ بشر . لا تنظرى إلىّ كالمرتابة ، فهذا الخبيث ابن هلالٍ قد ألقى الطاعة إلى إبليس حتى عظُم أمره عنده فهو يُخْدِمُه [٢] ويُناطقه ، وحتى لقد ترك له صلاة العصر تقربًا إليه ، وحتى أباحه إبليس أن يأمر الشياطين تتلعَّب ببنى آدم ، ومن شرطه عليه أن لايزال أبدًا يجمَعُ بين الرجال والنساءِ فى الحرام . وهو رجل كما يقول مولاى ...» . قالت ظمياء : وإن لك لمولى ياصهباء ؟ قالت صهباء : دَعِينى حتى أتمّ ياظمياء .. هو رجُل قد أوتى من القُوَّةِ على السِّحْر والقدرةِ على تلبيس أنظار الناس ما لم يجتمع لأحد من شياطين السَّحرة قبله ، فلو هو مسَّ وجْه امرئ بمنديله الأزرق ذى الوشيِ لم تأخُذْه عينُ بشر . وهكذا هو يفعل بمولاك وصاحبتيه حتى لا يراهم الناس . قالت ظمياء : وإنَّ هذا يكونُ ؟! قالت صهباء : نعم ! وليس فى الأرضِ أحدٌ يطيق أن يَدْرأ شرّ هذا الشيطان الخبيث إلا مولاى . فقالت لها ظمياء : ولكن أنّى لمولاك ياصهباء أن يكونَ عَرَف الذى خبرتنى به إن كان ما تقولين عن مولاى مما سمعته منه ؟ قالت ظمياء : فدنت منّى ونظرتْ فى عَينىّ بعينين مذعورتين يخفِقُ فيهما مثل شقائق البرق ، ثم قالت : ما من شىء يفْعَله هذا الخبيث ابن هلالٍ حيث كان إلّا كانَ عند سيّدى خبرُه . فقالت لها ظمياء : وَيْبى ! أحقًّا قلت ياصهباءُ ؟ قالت : وَىْ ، أو كنتُ كاذبةً عليك وما أنا

---

(١) الخُتُونة : المصاهرة ، والخَتَنُ : أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته وكل من كان من قِبلِ امرأته .

(٢) يُخْدِمه : جعل له خَدَمًا .

وأنت إلّا من هذه الجوارى الغريبات المستضعفات ؟ ومالك تكذّبينى وإنْ عندى من برهانٍ ذلك مالا قِبلَ لك بردّه . قالت ظمياء : بالله ! قالت : بالله ، فاذهبى إلى صِوَان سيّدك فى هذه الغرفة التى إلى جوارنا ، وأخرجى من بين المِطْرف السابع والثامن من ثياب مولاكِ ماتجدين !

[قالت كلثم امرأة ابن أبى ربيعة] :

« فهبّت ظمياء فدخلت إلى صِوَانك (تعنى عمر) فأخرجت شيئًا رجعتْ به إلى صهباء . ثم إذا هى تدخلُ علىّ وتقصُّ قصة ماكان ، فأمرتها أن تأتينى بصهباء لأسمع ماتقول ، فروت لى كل ما حدثتك به يا أبا الخطّاب .

(قال عمر بن أبى ربيعة) :

« فما تمالكت أن قلت لكلثم : ماتقولين ؟ وأى شىء هذا الذى كان بين مطرفى السابع والثامن ؟ فقالت كلثم : رُويد ياعمر ، إما أن تدعنى أتمّ وإلّا والله لا سمعتَ منى شيئًا حتى يقطَع الموت بينى وبينك . قلت : ويحك ، فأتمى .

قالت كلثم : « ثم إنى سألت صهباء عن سيدها ومولاها فقالت إنه رجل صالح يسيح فى الأرض ، وإنه قد جاء فَحجَّ حِجَّتَهُ وهو على سَفَرِه بعد قليل يضرب فى البادية حيث يشاء الله . قلت لها : أو يعلم مولاك من أمر ما تحدثينى عنه أكثر مما قلتِ ؟ قالت : لا أدرى يامولاتى ، فإنه ربما دعانى ويجعل يحدثنى ويحدثنى حتى أقول لن يَسْكُت ، وما هو إلا كخاطفة البرق حتى يقطع فلا يتكلم . فربما عدت فسألته فلا والله ما يزيد على أن ينظر إلى ويبتسم . قلتُ لها : أو تستطيعين ياصهباء أن تأتينى بمولاك ، ولك عندى مائة دينار ؟ كلا لا نلت من مال مولاتى شيئًا ، ولكنى سأديرُه حتى يأتيك لما أرى فى وَجْهك من الخير والسَّعْدِ .

* * *

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

« وذهبت صهباء وبقيت أترقَّبها ثلاثة أيام ولياليها وهى لا تجىء ، حتى إذا كانت ليلة خرجتَ إلى الطائف آخر خَرْجة ، جاءتنى صهباء فى جِنْح العَتمَة ودخلت هى وظمياء . قالت : لقد أطاع مولاى مرضاتك ، فإن أذنتِ جئتُ به الساعة . قلت لها : لبِّثى حتى يأوىَ جوان . فلما كان بعد هدأة الليل وفقدنا الصوت ، ذهبت صهباء ساعة ثم جاءت . وَدَخَل عَلىَّ رَجُل أسمر طُوالٌ نحيل البدن مَعْروق الوَجْه أبيض اللحية أشعثُ أغبر ، كأن عينيه جمرتان تَقِدان فى وقْبَين[1] غائرين كأنهما كهفان فى حِضْن جبل ونظر فى عينى فوالله لتمنيتُ أن الأرض ساخَتْ بِى ولم أنظر فى عينيه ، فما هو إلّا أن سلَّم حتى سمعت نغمةَ صوتٍ شجى كحنين الوالهة ، فوالله لتمنيت أن يتكلم ما بقيتُ . ولم أدر ما أقول ودَهِشْت وهلك صوتى ، فنظرت فإذا هو يبتسم إلىَّ ثم يقول : « يا أم جوان ! لقد سعيت إلى بيتك وما سعيت من قبل إلى بيت إلا إلى هذه البَنِيَّة « يعنى الكعبة » . وقد جاءتنى فتاتى صهباء تحدثنى عما كان منها إليك ، وقبيحٌ بامرئ أفزع قلبًا ساكنًا أن يدعه أو يطمئن ، ولو كنتُ أعلم أنها مفتوقة اللسان ، ما حدَّثتها بشىء أبدًا » . قالت كلثم : فكأن الله جعل لى قوة سيلٍ جارف فقلت له : كذبت يارجل وكذبت بنت الأصفر ، ووالله لئن لم تأتنى ببرهان ما تقول ، لتركت شيبتك هذه أباديدَ[2] فى أكفّ صبيان مكة . ووالله لو صدقت لأسترنّك

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠٢) ، ١٩٤٤ ، ص : ٦٠ - ٦٢

(١) الوَقْب : النُّقْرة فى الصخر يستنقع فيها الماء .

(٢) أبادِيد : متفرِّقة ، قِطَعًا قِطَعا .

ولأكفينَّك ماعشتُ . فقال : « جزاك الله خيرًا يا أم جوانٍ أما إذ كذبتى فآيتى أن تذهبى فتستخرجى من جوف حقيبة عمر الحمراء بين جلدها ومفرشها كتابَ عبد الله بن هلال الفاسق بخط يده ، قد جعله تميمة لزوجك أن لا يراه أحدٌ إذا خرج إلى مأوى الفتاتين بالطائف ، ومعه منديلُ ابن هلال الأزرق ذو الوشى ، يمسح به وجْهَه قبل أن يرحل » . فما كذَّبت أن طِرْتُ إلى ما زعم ، فوالله لقد صَدَق وبَرَّ .

« قال عمر » ، قلت : ماتقولين ؟ قالت : صه ياعمر فوالله لقد صدق وبرّ ، وقلت له : أيها الشيخ ! أفأنت تعلَمُ أين تجد هاتين الخبيثتين ؟ قال : لا . قلت : فما تزعمُ فتاتك من أن لا شيء يفعله الخبيث ابن هلالٍ إلا كان عندك خبره ؟ قال صدقتْ . قلت : فكيف لا تعلم ؟ قال : إنه أخبث وألأم وأضل وأدهى وأقرب إلى إبليس وبنته بَيْذَخْ ذات العرش من أنْ أُطِيق معرفة ما انقطع بينى وبينه . قلت : وما بَيْذخ ذات العرش ؟ قال : إنها ابنة إبليس التى اتخذت عرشها على الماء حولها سودٌ غلاظ يشبهون الزُّطِّ ، حفاة متشققو الأعقاب ، ولايصل إليها إلّا من قدّم لها القرابين من حيوان ناطق وغير ناطق ، وترك لها من الصلاة والصوم ، وقدم إليها من الذهب والفضة واللآلىء حتى ترضى ، فإذا فعل ما تريد وصل إليها فسجد تحت عرشها ، فَتُخدِمه [(١)] من يريد وتقضى حوائجه . قلت : وما علمُك بهذا أيها الشيخ؟ قال : ذاك شيء قد كان ، والله هو التواب الرحيم . قلتُ : قد كان ! قال : نعم أما اليوم فلا ، وما يأتينى بأخبار اللعين الزنديق ابن هلال إلا صاحب من الجن قد آمن بإيمانى ، ولكنه محجوبٌ عن الأسرار . فقالت أفلا تكرمنى أيها الشيخ فتسأل صاحبكَ أن يحتالَ ليعرف ؟ قال : لا أدرى ! ولكن ائتينى بطستٍ أُناطِقْ صاحبى .

« فأتيته بطستٍ فكبّه ، وأخرج من كُمّه غلالةً سوداءَ فنشرها عليه ، وأَمَر بالفتائل فأطفئت ، وطلب جمرات فى طبقٍ فلما تم ذلك أخرج عُودًا من المندلى فطيَّر دُخَانه ، وجلس حتى وإن عينيه لتبِصَّان [(٢)] فى الظلماءِ ، وجعل يتمتم

(١) تخدمه تجعل له خَدَمًا .

(٢) تبِصّ : تَلْمَع .

ويدندن ويُهَمْهِم حتى كدتُ أنشقُّ ، ثم قال : يازوبعة ! فإذا صوتٌ يأتى كأنما يخرجُ من جوف بئرٍ شَطونٍ (١) يقول : لبَّيك يا أبا الحسن ! وقال : أتدرى أين أنا ؟ قال : بلى دَرَيْتُ ! قال : لقد حضرنى من الأمر ما تَعْلم ، أفأنت بمُدْركى بمأوى قينتى ابن هلالٍ ؟ قال : لقد علمتَ ما لى ببيذخَ طاقة إيمانى بالله ورسوله ! قال : أفلا تحتال ؟ قال : تبًّا لك ! أترومنى أن أرتَدَّ إلى الكفر بعد الإيمان ؟ قال يازوبعة ! أَمالك مِنْ صديقٍ ترفقُ به حتى تستلَّ منه السرّ ؟ قال زوبعة : هذا فراقُ بينى وبينك أيها الخبيث . ووالله ماتركتَ السِّحْرَ إلّا وفى قلبِك رَجْعَةٌ إليه . خسئتَ أيها الفاجر ! » . وإذا الطستُ يتحرَّك فينقلبُ فأرى كمثل شرارة النار تنطلقُ مُدَّة ثم تخْفَى . قال الشيخ : يا أمّ جوان ، لقد رأَيت ، ومالى من حيلةٍ . قلت : احتَلْ لى وقاكَ الله السوءَ ، ولا والله لا تخرج من هذه الدار حتى تعطينى المواثيق بأن تفعلَ ما أريد . قال : أم جُوَان ، وكيف بعذاب الله ؟

« قالت كلثم : فوالله ما إن سمعتُ مقالته حتى خانتنى قدماى فوقفت أبكى ويرفضُّ دَمْعى كلذْع الجمْر ، ورأيت الدُّنيا قد أطبقت علىَّ ، وماهو إلّا أن أَنشِجَ بالبكاء . فدنا الشيخُ وأسر إلىَّ أنْ أبْشرى أمَّ جُوان ، فلا والله ما أدعُك أبدًا حتى يطمئن قلبك ، واصبرى غدًا تأتيك الصَّهْباءُ . وما أفقتُ حتى رأيتُنى كالمأخوذة وظمياءُ تنضَحُ وجهى بالماءِ . وبقيت الليل كلَّه أطويه ساعةً بعد ساعةٍ حتى أصبَحَ الناسُ ، وقلبى يجِفُ ، ودمعى ينهلُّ ، وكأنّ فى سَمْعى دوىَّ النَّحْل ، حتى إذا قام قائم الظهيرة جاءتْ صهباء ، فقالت : يقول لك مولاى إنه يَبْغِى رَفْرفَيْن من الديباج ، وعشرة أثواب من الإبريسَم ، وبُرْدين كذّابين (٢) من الخزّ ، وخمسين لؤلؤة لم تثقب . فما كذّبتُ أن أعطيتها ما طلبتْ . وغابت يومين ثم جاءتنى مع العشى وقالت : يقول لك مولاى : لو أطاقَ أن لا يكلّفك لفَعَل ، ولكن الأمرَ قد

---

(١) بئر شطون : بعيدة القَعْر .

(٢) الرفرف : البِساط ، وكل ما كان مِن دِيباج فهو رفرف . كذَّابيْن : يأتى مفرده أكثر مايأتى بصيغة المؤنث ، والكذَّابة : ثوب يُصْبَغ بألوان ، يُنْقَش كأنه مُوَشّى ، وفى حديث المسعودى : رأيت فى بيت القاسم كذَّابتين فى السقف ، لذا أظن أن صواب الكلمة بالتاء ، أى مؤنثة .

استعصى عليه بعد توْبته ، وإن بَيْذَخ (بنت إبليس) لتتقاضاه كِفاءَ ما عَصَاها فى طاعة الله . وإنها قد طلبت أن يذبحَ لها من الذبائحَ ما يسيلُ على جنباتِ الغَوْرِ (مسكن الجن) حتى ترضَى . قلت : كم يريد مولاك ؟ قالت : بين المئتين والثلاثمئة . فوالله ما كذّبتُ أن أعطيتُها . فما غابت إلّا يومًا أو بعضه حتى جاءت تطلبُ المنديلَ الذى أعصبُ به رأسى ، فما كذّبتُ أن أعطيتُها . ثم جاءتنى من الغَدِ عند الأصيل ، فقالت : يقول لك مولاى لا تصلى العشاء الآخرة الليلةَ حتى يُؤذِنَك . فوالله لقد كبر على ولكنى أطعتُه ، وإذا أنا أسمعُ فى سُدْفَة [1] الفجر صوتًا كالمتحدِّر ما بين جبلين يقول : قُومِى إلى صلاتِك . فقمتُ فصلَّيْتُ وما كدتُ حتى أذّن الفجر . فلما كانَ بعد أيام جائتنى صهباءُ تقول : أبشرى ! سيأتى مولاى الليلة . قلت : مرحَبًا به من ضيفٍ . فلما دَخَلَ الليل وسكن الناس ، جاءَ الشيخ لميعاده فسلّم وسكتَ ثم قال : انظرى إلىّ يا أم جوان . فنظرت فى عينين كالنار المشعلة فى الليلة الدّامسة ، وجعل يُمر يده بين عينىَّ وعينيه ، فكلما احتجبتا عنى أظلمت الدنيا فى عينى ، وإذا وقعت عينى فى عينه أضاءَ مابينى وبينه كالسراج المتوهج ، فوالله ما شعرت إلا وظمياءُ تنضحنى بالماءِ حتى أفيق . قلت : ياظمياء ! أين الشيخ ؟ قالت : لقد أذنتِ له أن ينصرف بعد أن أعطيته من المال ماطَلَب .. قلت : تبًا لى أين كان عَقْلى ؟ وكم أعطيته ؟ قالت : ألف دينار ذَهَبًا ، وواعدَك أن يأتيك بعد سبعة أيام بمأوى الخبيثتين .

« قالت كلثم : وهذا اليوم ميعاده ، ووالله لئن صدقتنى ياعُمَر لقد حفظتك ماعشتُ فى قلبى » .

« قال عمر بن ربيعة » : « فوالله ماكنت أدرى ما أقول ، إلا أنى قلت لها : أَصْدُقُكِ ؟ لقد ضللتِ إذن أيتها الحمقاء » . قالت : « أنا حمقاء أيها الفاجر الفاسق ! ثم قامت إلى صوانها فاستخرجت منه شيئًا ونشرته لعينى ، فإذا سَرَقةٌ [2] من حرير أبيض عليها صورتان ، فما تأملتها إلا كانتا والله قينتى ابن هلال حيث رأيتهما وسمعتهما بالكوفة ، ولقد كانتا فى السَرَقة أجمل وأفتن وأحبَّ إلىَّ مما

---

(١) السُّدْفَة : الظلمة .

(٢) السَّرَقة : أجود أنواع الحرير .

كانتا . قلت : إنهما والله ياكلثم قينتا ابن هلال ! قالت : وصدق الشيخ أيها الفاجر ! أَتَدَع حرائر بنى مخزوم إلى الخبيثات الدنيئات من بغايا الكوفة ، تخالف إليهن تحت الليل والسِّحر والكفْر وعبث الشيطان بك وبعقلك .

[قال عمر] : وإذا جوانٌ بالباب ينظر إلى الصورتين ، ثم يتقدم ويقول : ما بك يا أمَّاه ! فتقول : هذا الخبيث الفاجر يدع الحرائر من بنى مخزوم ملطَّمات (١) ويختلف إلى زوانى الكوفة يقتادُهن إليه الخبيث ابن هلال بالسحر والطلاسم . وهذا منديله يمسح به غبارَ وجهه لا يراه الناس ساعيًا إلى فجوره .

[قال عمر] : وجعلت تقص على جوان قصة ماكان ، وهى تنظر إلىَّ كاللبؤة المُجْرِية ريعت أشبالها ، فما كادت تفرغ حتى جاءت ظمياء مُعْجَلةً تقول : مولاتى ، صهباء بالباب . قالت كلثم : إيذنى لها . فما كدت أراها حتى فزعت قائمًا إليها وأخذتُها بغدائرها : « وإنك لأنتِ أنتِ أيتها الشيطانة . فانقضَّتْ علىَّ كلثم تذودنى عنها وتقول : دعها أيها الفاجر قلت : إنها فِتَن جارية الخبيث الفاجر عبد الله بن هِلال ولطالما خدمتنى بالكوفة ! أليس كذلك يافتن ؟ قالت : أراك ياسيدى فما أنا إلا جارية بائسة مسكينة يركبنى هذا الشيطان بخبثه وخبائثه . قلت : وأين ابن هلال صديق إبليس ؟ قالت : ماتدركه يامولاى ! فقد ارتحل الليل وتركنى والثَّقَل . قلت : وما جئتِ تبغين ؟ قالت : أرسلنى أطلب المال من مولاتى .

قالت كلثم : دعها ياعمر الآن ، لقد ضللتُ إذن مافعلتُ ، ووالله لقد خدعنى الشيطان ابن هلال . أين كان .

فقال جوان : والله يا أمَّه ! لقد كان فجور أبى بخَبِيثتيْن من بغايا الكوفة ، أحبَّ إلىَّ من شِركك بالله وكفاك . قُومى يرحمك الله فتوبى إلى الله مما كان من ضلالك وكفرك .

* * *

---

(١) ملطمات : إما عنى بيض الوجوه ، وأصل ذلك فى الفرس إذا سالت غرته فى أحد شِقَّىْ وجهه ، وذلك من علامات الكرم . وإما أراد أن وجوههن (وسائرهن بالطبع) تفوح بالمسك ، وهى اللطيمة .

من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

حديث غد ...

(قال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة) (**) : خرجتُ فى صفر من سنة أربعين أريدُ المدينة أزورُ فتيانًا من أصحابى بها ، وأتحسَّس الأخبارَ أخبار الفتن المشئومة التى توزَّعت قلوب المسلمين ، وأنظر ما فعل بُسْر بن أبى أرطاة بِمُهاجَر رسول الله ﷺ ، فقد بلغنا أنه أحدث فيها أحدَاثًا عظامًا .

غادرت مكة يوم غادرتها وهى كالتنُّور المتوقِّد ، فقد ذابت عليها الشمس ، واحتدمَ وَهجُها وبقينا نتنفس بين أخشبيها (١) لظى من فيح جهنم ، حتى يحس المرء كأنّ الدمَ يفورُ فورانًا فى عروقه ، وقد خدر النهارُ من حوله فلا ريحٌ ولاَ روْحٌ ، فلكلّ نَفَسٍ لذعة فى الخياشيم والصدر تنشف الرِّيق حتى يكادُ اللسان ينشقُّ من فرط جفافه ، وحتى يكاد يظنُّ أنه الجنون . ما أصبرنا يا أهل مكة على صياخيدِها (٢) ، وما أحبها إلينا على شدة ما نلقى من لأوائها ! بورِكتْ أرضًا وتعالى من حرَّمها وتقدَّست أسماؤُه .

كان النهارُ حرًّا ماحقًا منعنا التأويب ، فكان سيرُنا كله إدلاجًا (٣) تحت غـواشى الليل إلى أن يُسْفِرَ الفجر وطرفًا من النهار . ولشدَّ ما أعجبنى الليل وراعنى حتى تمنَّيتُ أيّامئذ أن الدهر ليل كلُّه ، فقد كنت أسرى تحت سماءٍ زرقاء ملساءٍ صافية كأنّ النجومَ فى حافاتها وعلى صفحتها دُرٌّ يتلالأ على نحرِ غانيةٍ وأنا تحت

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٠٥) ، يناير ١٩٤٧ ، ص : ١٤ - ١٧

** كتب عمر هذه الكلمات وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فقد كان مولده ليلة الأربعاء لأربعٍ بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين يوم مقتل عمر بن الخطاب (شاكر) .

(١) الأخشبان جبلا مكة المطيفان بها ، وهما أبو قبيس والأحمر .

(٢) الصياخيد : جمع صَيْخود ، شدة حَرّ الشمس .

(٣) التأويب : الرجوع بالليل ، يعنى لا ينزلون ليلا وإنما يسيرون الليل كله ، وهو الإدلاج ، لأنهم لا يستطيعون السير نهارا لشدة حر الشمس .

أنفاسها كالشارب الثمل . وكيف تفعل هذه البيداء بنا وبقلوبنا ؟ قيظٌ يسلخُ جلد الحية ويذيبُ دماغ الضبِّ ، لا يلبث أن تنفحنا بعده بنسيمٍ هفافٍ كأن الليل يتنفس به ليخفف عنا بلاء نهارنا ، ويفوح من بُرُود الليلِ شَذا الأقاحىّ (١) فيفغم (٢) الفضاءَ كلَّه أحيانًا حتى يخيل إلىّ أن البادية المجدبة قد استحالتْ روضةً تنفث أزهارُها الطيبَ من حيث استقبلتُ ، فأجد لها روحًا على كبدى وراحة فأعبُّ من أنفاسها عبًّا حتى أقول لقد سَكِرتُ من غير سُكرٍ . ثم ما أندى رويحةَ الفجر على قلوبِ السارينَ فى هذه المهامه السحيقة المتقاذفة (٣) ! فإن عبيرَها وبَرْدها والنور المشعشع على أرجائها يجعلك تحسُّ حسًّا لا يكذب بأنك تحيى فى لذاذات لا ينقضى منها أربٌ ولا يستحيل لها مذاقٌ . ولقد حبب إلى الخروجُ إلى البادية كلما وجدتُ فى نفسى طائفًا من سآمة أو مللٍ ، فيا بُعدَ ما بين الحاضرةِ وجوّها الكامِد الجاثم ليلا ونهارًا ، وبين هذه الرِّحاب المتمادية التى يبثُّها النهارُ لواعجه وحرقه ، ويأتى الليل فيناجيها نجوى خافتةً بما فى ضميره العميق المشتمل على أسرار الحياة برِّها وفاجِرها ، وتقف النجومُ على أرجاء سمائها مصغياتٍ مشرقات زاهرات كأنما يومِضُ بعضُها لبعضٍ فرحًا بما سمعتْ من تلك الأسرار المصونة المكتمةَ .

* * *

كلما أوغلنا فى البادية وفى قلب الليل ازددتُ فتنةً بليالى الصحراء وتهامُس رمالها وتَناجى كواكِبها ، وأسمعُ للَّيل هَسْهسةً كأنها أحاديثُ قُلوبٍ عاشقة قد تدانى بها السِّرارُ ، فتمضى الساعات والعيشُ ماضيةٌ بنا فلا نملّ ولا نكلُّ ولا نحسُّ وحدة ولا مخافةً ، كأنّا قد دخلنا الحرم الآمنَ الذى لا يراع اللائذ به . وجعلتْ نفسى تتجدَّد وتتطهر كأن برد الليل قد غسلها فما تشوبُ نقاءها شائبة .

---

(١) الأقاحى : جمع أقْحُوان : نَبْت طيب الريح ، حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر ، تُشبَّه به ثغور النساء .

(٢) يفغم : يملأه برائحة طيبة .

(٣) المهامه : جمع مهمه ، وهو الصحراء . المتقاذفة : البعيدة .

وبعد ليال أفضتْ بنا المسالك إلى « الرَّبَذَةِ » التى بها قبر أبى ذرّ الغفارى رضوان الله عليه ، فلم يبق بيننا إلى المدينة سوى ثلاثة أميال ، وأدركنا الفجر وإننا لعلى مشارفِها ، فقلنا نعوجُ بها فنصلى الفجر ثم نرتحل حتى نبلُغ المدينة فى نهار يومنا هذا . فلما أنخنا جمالنا وقمنا إلى الصلاة ، سمعت صوتَ قارئ قد تأدَّى إلينا من بعيدٍ ، فتلمَّسْته حتى تبينتُ صوتًا رَاعِدًا تقيًّا كأنه الجبالَ والرمالَ والدنيا كلُّها تهتزُّ على نبراته القوية العنيفة الصادقة ، وكأنه يمضى فى إهاب الليل المهلهل فيفْريه فريًا ويمزقه بِمُدًى من النور ، وكأنه يسيلُ فى البطحاءِ كالسَّيل المتقاذفِ فتموج فيه رمالها كأمثالِ الجبالِ نُسفتْ من قراراتها ، وكأنّ ألفاظهُ هَبَّاتُ عاصفةٍ تفضُّ دُرُوع الليل فضًّا ، وكأنّ نغماتِه أنوار مشعشعة تخالطُ هذا كلَّه فتملأ الفجر فجرًا من نُورِها ونور ألفاظها ومعانيها . وأول ما تبيَّنْتُه حين دنوت منه بحيث أسمع قراءته : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ ، إلى آخر الآيات ، فلما أخذ يكبر سمعت التكبير يملأ جنبات الأرضِ كلها مترددًا ظاهرًا كأن لم يبق فى الدنيا شىءٌ إلا كبر بتكبيره .

فرغ الرجل من صلاته ووضع عمامته وبقى حيثُ هو قليلا ثم قام ، فأضاءه لى ذَرْوٌ (١) من نور الفجر الناهد من قبل المشرق ، فإذا رجل فى السبعين من عمره وافر اللحية أبيضها ، أسمر شديد السمرة طوالٌ جُسامٌ فارعٌ كأنه صعدة (٢) مستويةٌ ، أصلعُ الرأس شديدُ بريق العينين ، نظر إلينا نظرةً وحيًّى ثم انفتل راجعًا إلى فسطاط مضروب قريب من حيث كان يُصَلِّى . رأيتُه وهو يمشى كأنه قائدٌ يحسُّ

---

(١) ذَرو : القليل من الشيء . والناهد : الذى بدأ فى الظهور .

(٢) الصعدة : القناة تنبت مستوية ، ولما كان الرمح يُصْنَع منها سُمِّى صَعْدَة .

كأن الجحافِلَ من ورائه تمشى على أثره . وبعد قليل جاءنا رجل كأشدِّ من رأيتُ من الناس نَفاذَ بَصَر ، فحيَّانا وقال : من الناس ؟ قلت : عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . قال : ابنُ العِدْلِ [1] ؟ رحم الله أباك ، فقد شهد معنا المشاهد بعد عام الفتح . قلت : فمن يكون الرجل الذى أوى إلى فسطاطه يرحمك الله ؟ قال أو ماعرفته ؟ إنه محمد بن مَسلمة الأنصاريّ صاحبُ رسول الله وصاحب أبى بكر وعمر . قلت : فما جاء به ، وقد سمعنا أن رسول الله نهى عن أن يرتدَّ المرءُ أعرابيًا بعد الهجرة ، وأنه ذكر ثلاثًا من الكبائر منها « التعرُّبُ بعد الهجرة » ، فيعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرًا . قال : صدقت يابُنَى ، ولكن لذلك خبرٌ :

كانَ محمد بن مسلمة فيمن ثبت مع رسول الله يومَ أُحُد ، فأعطاهُ رسول الله سيفًا وقال له : « إنه ستكون فتنة وفُرقة واختلافٌ ، فإذا كان ذلك فأت بسَيْفِك أُحُدًا فاضربْ به عُرْضَه حتى تقطعه ، واكسر نبلك واقطع وتَرَك ، واجلس فى بيتك حتى تأتيك منيّة قاضية أو يد خاطئة ، فإن دَخَلَ عليك أحدٌ إلى البيت فَقمْ إلى المخدَع ، فإن دَخَلَ عليك المخدع فاجثُ على ركبتيك وقل : بُؤ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاءُ الظالمين » . وقد فعل حين كانت هذه الفتن بين علىّ ومعاوية فكسر حدّ سيفه وقعد فى بيته ، وأطاعَ نبيَّه وعصى الشيطان الذى استزلَّ هذه الناس التى يقتل بعضُها بعضًا . ولقد قضى فى مكانه هذا ثلاث سنواتٍ يدعو ربه أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين التى جعلت تتفانى على دُنْيا فانيةٍ ، وعسى ربُّك يستجيبُ لدعاءِ هذا الرجل الصالح فتحقن الدماءُ وتوصَل الأرحامُ ويعزُّ بهم دين الله فى هذه الأرض .

(قال عمر) : فسألتُ الرجل أن يستأذن لى على أبى عبد الرحمن محمد بن مسلمة ، فذهبَ ثم جاء يُومئ إلىَّ أن أقْبِل . فدخلت على أبى عبد الرحمن

---

(١) كانت قريش تلقب عبد الله « العدل » ، لأن قريشًا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها من ماله سنة فكان وحده عدلا لقريش جميعًا فى ذلك ، وكان تاجرًا موسرًا .

فسطاطه فإذا فيه سيف مُعلَّقٌ على جانب منه ، فلما سلَّمتُ ردّ التحية وقال : مرحبًا بك يا ابن أخى ! ماجاء بك ؟ قلت : زائرٌ إلى مدينة رسول الله يا أبتاه . فدعانى أن أجلس ، فوالله لقد أخذتنى للرجل هيبَةٌ ماوجدتها لأحد ممن لقيت من صحابة رسول الله ، ولا من أمراءِ المسلمين ، وكانت عيناهُ تَبِصّان فى سُدْفَة (١) الفسطاط كأنهما قِنْديلان يلوحانِ فى ظلامٍ بعيدٍ . وجعلتُ أنظر يمينًا وشمالا فلا ألبث أن أثبت نظرى على سيفه المعلق ، فلما رأى العجَب فى عينىّ قال : لعلك تقول ، لقد كسر سيفه ، وهذا السيفُ معلقٌ بحيث أرى ! ثم قام واستنزل السيف واخترطه (٢) فإذا هو سيفٌ من خشب .

ثم قال : لقد فعلت ما أمرنى به رسولُ الله ﷺ واتخذتُ هذا أُرْهِبُ به الناس .

* * *

(قال عمرُ بعد حديث طويلٍ) : قلت له : يا أبتاه والله لقد آنستنى وأدنيتنى وأطلقت لسانى فلو سألتك ! قال : سل ما بدا لك يا ابن أخى . قلت : لقد حدَّثتنى عن قتلك كعب بن الأشرف اليهودى ، وعن قتل يهودَ أخاك محمودًا رضى الله عنه ، فهلا حدثتنى عن إجلائك يهودَ عن جزيرة العرب فى زمان عُمَر ؟ فقال :

رحم الله الرجل ، فقد كان شديدًا فى الحق حافظًا للعهد ، ولكن يهودَ قومٌ غُدُرٌ ، أساءُوا الجوار وخانوا العهد وتآمروا على المسلمين ، فعزمَ عمرُ على أن يجليهم عن أرض العرب ليقطعَ غدرهم ويحسم مادة النفاق فى هذه البقعة المباركة . فأرسَلَ إلىّ وقال « لقد عهد إليك رسول الله مراتٍ أن تجلى يهود ، فأنا أتبع سنته وأعهد إليك أن تجلى لى يهود عن أرض العرب ، فلا تظلمهم ولا تؤذِهم ، ولكن لا تدعْ منهم صغيرًا ولا كبيرًا ولا طفلا ولا امرأة حتى تستوثق من جلائهم بجموعهم عن أرضنا . ولئن عشت لأُجْلِيَنَّهم عن كل مكانٍ كبَّر فيه

(١) تبصان : تلمعان . السدفة : الظُلْمة .
(٢) اخترط السيف : استلّه من غمده .

المسلمون لله ، فإنهم أهل فسادٍ ونفاقٍ وخَبَث » . فخرجتُ إلى طوائف اليهود فى خيبر وسقتهم مستقبلًا بهم الشام ، فلما بلغنا غايتنا أقبل علىّ رجل من ولد الحارث أبى زينب اليهودىّ ثم قال لى : لقد كنت مسترضعًا فينا يا أبا عبد الرحمن ، وكنت أنت وابن الأشرف رضيعى لَبَانٍ ، فما لبث أن جاء هذا الدين واتبعتم ذلك النبىّ حتى قتلت أخاكَ ورضيعَك ، وها أنت تخرجُنا من ديارنا وأرضِ أجدادنا ، وترمينا فى ديار الغُرْبة ، فهلا كنت تركت كل ذلك لغيرك أيها الرجل ! فقلت له : يا أخا يهودَ ، لئن كنت قتلتُ رضيعى فقد قتل قَوْمُكَ أخى محمود بن مسلمة غدرًا ، وعرضتم لحرم رسول الله بالتشبيب والبذاءة والسّفَهِ ، وأردتم أن تغدروا بنبى الله وتدلوا عليه صخرة لتقتلوه ، أفتظنّ يا أخا يهودَ أنّا تاركوكُم تعيثون فى الأرض فسادًا ، وتكفرون النِّعم ، ولا ترعونَ حرمة ولا ذِمامًا ولا عهدًا ، وتتآمرون على المسلمين تحت الليل ، وتعدون عليهم غارِّين آمنين ؟ ووالله لقد صبر عليكم عُمَر صبرًا طويلًا ، ولو كان حَزُّ رقابكم جزاءً بما تصنعون لقلَّ ذلك لكم .

قال ابن الحارث : لشدَّ ما تِهْتُم علينا أيها الناسُ ، فوالله ليكونن لهذا اليوم الذى أذللتمونا فيه وفضحتمونا وأجليتمونا عن أرضنا وأرض آبائنا يوم مثله يكون لنا عليكم ، فقد جاء فى كتبنا أنه سوف يجىء يوم تدخل فيه اليهودُ على أبناءِ يعرب هؤلاء فتذيقهم بأسًا شديدًا وعذابًا غليظًا ، حتى ترى اللُّقمة فى يد المسلم قد أدناها إلى فيه فإذا على رأسه رجالٌ من أشدَّاءِ يهود تنفِّره حتى يدعَها لهم . ولتدخلنّ نساؤنا على نسائكم حتى لا تبقى امرأة منكم إلا نامت بشرٍّ ليلةٍ ممّا تَلْقى من نسائنا ، ولنسوقنكم كما سقتمونا حتى نجليكم عن ديار آبائكم وأجدادكم ولنفعلن الأفاعيل حتى تكون لنا الكلمة العليا ونحن يومئذ أحق بها . والله ما نصبر على ما آذيتمونا إلا انتظارًا لما يكون غدًا كما قال لنا أنبياؤنا . وكأنى أنظر إلى غدٍ ، فأرَى وجوه الأحباب من بنى إسرائيل قد سقطت عليكم من كل فج كأنهم جرَادٌ منتشرٌ تأكل يابسكم وطريَّكم ، ولا تدعُ لكم موطئ قدم إلا كان تحته مِثْل جَمْرِ النار . وإنكم لتقولون إن الله قد ضرب علينا الذلة والمسكنة . فوالله لئن

صدقتمُ اليوم إذْ أَمِر أمرُكم (١) ، لتعرفنّ غدًا أننا شعب الله الذى لا يرضى له الله بالذلة والمسكنة ، ولقد كنّا ملوك الأرض فدالت دولتنا كما دالت من قبلها دول ، ولكن الله بالغُ أمره يوم تدولون كما دُلْنا ويعودُ الأمر إلينا ، فنحن قوم أولوا بأس شديد ، ونحن أهل الكتاب الأوّل ، ونحن أتباع الحقّ . فإذا جاء ذلك اليوم يا أبا عبد الرحمن فستعلمون أيُّنا أشدُّ تنكيلا . فوالله لنتخذُنّكم لنا أعوانًا على أنفسكم ، ولنضرِبَنّ غاديكم برائحكم ومقبلكم بمدبركم ، ولنوقعنّ الفتنة بينكم حتى يُصْبِح الرجل مِنكم مؤمنا ويمسى كافرًا ، وليكوننّ لنا من أنفسكم رجالٌ يخْربون بيوتهم وبيوت آبائهم وهم عنا رضوان ولنا مطيعون !

قال محمد بن مسلمة : فسمعتُ الرجل يقول قولًا كبيرًا ، فقلت له : لئن صدقَ أنبياؤكُم فكانَ ذلك ، فما صدقوا إلا ليصدقوا رسول الله فى خبرِه ، فأنتم اليوم أشتاتٌ مبعثرون فى جنبات الأرض ، وليزيدنكم ربُّكم فُرقةً وشتاتًا ، فإذا جاء ذلك اليوم فدخلتم علينا أرضَنا وعلا أمرُكم فى حيث يشاءُ الله منها ، فلكى تتم فيكم كلمةُ الله وليعذِّبكم وليستأصل شأفتكم من أرْضه ، ولتكونوا عبرةً للطاغين من أمثالكم ، فقد قال الصادق المصدّق رسول الله : « تقاتلكم يهودُ فتسلّطون عليهم حتى يقول الحجرُ : يا مسلم ! هذا يهوديّ ورائى فاقتله » ، فوالله ليكوننّ ذلكَ كما أرادَ الله ، ويومئذٍ يعضّ طُغاتكم وطواغيتكُم أطراف البنان من النّدم ، فالعربُ هى ماعلمت يا ابن الحارث لا ينامُ ثائرها (٢) ولا يُخْطم أنفها بخطامٍ .

(قال عمر) قلت : يا أبا عبد الرحمن ! وإن ذلك لكائنٌ ؟ قال : يابنى ، ما علمى بالغيب ! ولكنه إذا جاء فليقضِيَنّ الله بيننا قضاءَه ، ويكونُ يومئذ فناؤهم على أيدينا ، فأمرُ المسلمين إلى ظهور ، وأمر يهود إلى حُكم الله الذى ضرَب عليهم الذِّلة والمَسْكَنة إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس . والله يحكم لا معقِّب لحكمه .

* * *

---

(١) أَمِرَ أمركم : اشتدَّ وقوِىَ . (٢) الثائر : الذى لا يُبقى على شىء حتى يُدرك ثأرَه .